أزاهير من رياض سيرة
القدّيس دون بوسكو

جمعها وترجمها
أديب مصلح

٢٠٢٢

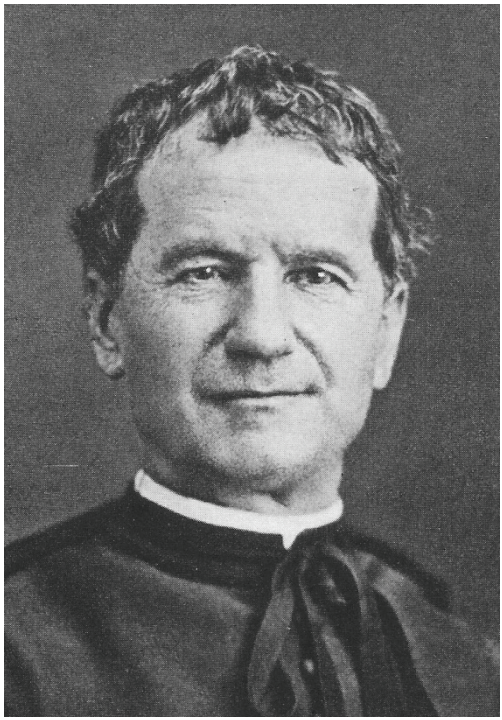

"أنا مستعدٌّ لكلّ تضحيةٍ في سبيل الشبيبة،

وسأبذل دمي، بطيبة خاطرٍ من أجل خلاصِهم" .

أحداثٌ عجيبةٌ

لقد زخرت حياة دون بوسكو بأحداثٍ عجيبةٍ، برهانًا على قداسته، وتأكيدًا لقول الربّ: "الحقَّ، الحقَّ أقول لكم: إنّ من آمنَ بي يعمل هو أيضًا، الأعمال التي أعملها، بل يعمل أعظمَ منها، لكي يتمجّد الآبُ في الابن. وإذا سألتموني شيئًا باسمي، فإنّي أفعله". (يوحنّا ١٤: ١٢/١٤).

إيمان دون بوسكو بيسوع وبعنايته لم يعرف حدودًا، فاستجاب له الربّ بسخاءٍ، لا سيّما أنّه لم يطلب لنفسه شيئًا، وكلّ مَن سأله نعمةً كان يدعوه إلى التماسها من الربّ بواسطة أمّ يسوع، مريم مساعِدة المؤمنين. وهل أعذب على قلب يسوع من تلبية طلبات أُمّه؟ وبالتالي، كان دون بوسكو ينسب إلى السيّدة العذراء المساعِدة كلّ معجزةٍ تتحقّق استجابةً لالتماسها منها، ولا يعزو لنفسه أيّ فضلٍ.

وتكاثرت الأحداث العجيبة، بواسطة دون بوسكو في سنواته الأخيرة، تتويجًا لتوغّله في جادّة القداسة، ولتنامي إنجازاته الخيّرة في ميدان المحبّة. فحيثما مرّ كان يحدث مثلما كان يحدث ليسوع في زمانه: عميانٌ يبصرون، وعرجٌ يجرون مستقيمين، وصمٌّ يسمعون، وخرسٌ يتكلّمون... كما تبيّن الأحداث التي سنرويها في الصفحات اللاحقات.

يوم فشل تلاميذ يسوع في شفاء فتًى مصابٍ بالصرع، قال لهم المعلّم إنّ شفاء مثل تلك العلل، لا تقوى عليه سوى النفوس التي طهّرتها الصلاة والأصوام، وقهرت أهواء الجسد. وذاك كان سرّ قدرة دون بوسكو، على ما كان يستعصي على آخرين. فالإنسان الذي تحرّر من ربقة الجسد وأهوائه، يصبح له جناحان أقوى من كلّ ريحٍ عتيّةٍ، يرتقيان به فوق كلّ جاذبٍ أرضيٍّ، وكلّ ثقلٍ مُعيقٍ.

من المحقّق أنّ الشفاءات التي كانت تتحقّق بتوسّله إلى السيّدة العذراء المساعِدة، كانت تثلج قلوب المرضى، وقلب

ذوي أطفالٍ معتلّين، نالوا شفاءً غير متوقّعٍ، وغير مرجوٍّ، وبالتالي كانت تفعم قلب دون بوسكو سعادةً. ولكنّها، كانت، في الآن عينه ترهقه، وتحرمه الراحة، وتولّد الحسد والافتراءاتِ لدى الذين لا يملكون ذرّةً من قداسته وتواضعه، وسموّ نفسه.

فكان لاهوتيّون مزدهون برفعة علمهم، لا يرون بعيون الرضى تلك الموهبة التي نالها كاهنٌ بسيطٌ، أدنى منهم علمًا. حتّى إنّ بعضهم نزعوا إلى اعتبار الخوارق التي تتحقّق تلبيةً لصلواته ومداخلاته، ضربًا من الشعوذة. وكان بعضهم يَعُدّ مرحَه أثناء تعامله مع تلاميذه غيرَ لائقٍ بهيبة المعلّمين.

غير أنّ أحد مَن عرفوه عن كثبٍ، وعظّموه، هو واحدٌ من كتّاب سيرته الأب "أوفّري" (Auffray)، الذي قال:

« لم يخطر لذلك الكاهن القدّيس التباهي بقدراته المعجزة، بل كانت هذه القدرات تسحقه... ولم تقتصر تلك الخوارق على أشفيةٍ عجيبةٍ، بل تمثّلت أيضًا في تكثير الخبز، وحبّات البندق، والكستناء، وقربان المناولة...

"فضلاً عن ذلك، أُعطي، على غرار كبار القدّيسين، قراءة كوامن النفوس، ورؤية الغيب...»

إنّ الأحداث العجيبة التي انتشرت على مدى حياته هي من الكثرة، بحيث لو رويتها كلّها في سياق كتاب سيرته، لجفّلت قرّاءً كثُرًا ينفرون من مجرّد رؤية مجلّدٍ على شيءٍ من ضخامة الحجم. فآثرتُ أن أفرد له هذا الكتيّب، الذي يمكن تخصيص دقائق معدوداتٍ من أجل استنشاق زهرةٍ أو زهرتين من حديقة دون بوسكو الغنّاء.

وإنّه لمن حسن الطالع أنّ تواتر تلك الأحداث الاستثنائيّة التي تبدو، غالبًا، فائقة الطبيعة، قد دفع ثُلّةً من الساليزيّين الأوائل، ومن رفاق دون بوسكو المقرّبين إلى تأليف لجنةٍ، تستهدف الحفاظ على تلك الثروة الثمينة من الأحداث العجيبة. فكان كلٌّ منهم يجمع ملاحظاتٍ عمّا سمع وشاهد، ويتلوها على الآخرين في اجتماعاتهم الخاصّة، ويُدخل عليها كلّ من يملك إضافاتٍ أو تعديلاتٍ تكملها.

لا ريب أنّ هذا الدأب الحريص على إبـــراز وتخليـــد إرثٍ غالٍ، يبرز جانبًا هامًّا من سيرة دون بوسكو، كان يحرم أولئك الشبّان ساعات نومٍ، كانوا في أشدّ حاجةٍ إليها، في أعقاب أيّامٍ حافلةٍ بالجهود المتواصلة.

غير أنّ هذا العمل الجماعيّ الوفيّ، يوفّر ضمانةً لدقّة هـــذه الشهادات ولواقعيّتها.

وإلى هذه المجموعة من الأحداث العجيبة، أضـــفتُ باقـــةً صغيرةً ممّا وُصِف بأقواله السحريّة، وهي نماذج مـــن أقـــوالٍ موجزةٍ كانت تغيّر مجرى مصائر بكاملها.

١- صاعقةٌ منقذةٌ

لّما ازدحم أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ في ڤلدوكّو، وتعذّر استيعاب قادمين جدُدٍ، وما انفكّ سيلهم يتدفّق، قـــرّر دون بوسكو التشعّب، وإنشاء أوراتواراتٍ أُخرى في أحيـــاء أخرى من مدينة تورينو. وبدأ بتأســـيس أوراتـــوار القـــدّيس لويس، وعثر على مكانٍ مناسبٍ له تملكـــه ســـيّدةٌ، فطلـــب استئجاره، ووافقت المالكة، مبدئيًّا، على تـــأجيره، ولكنّهـــا اقتضت بدلاً مفرطًا في الغلاء. وعبثًا جهد الكـــاهن التـــأثير عليها، كي ترضى ببدل إيجارٍ معقولٍ، مخاطبًا عقلها، وقلبـــها، ورأفتها بفتيانٍ مهملين، مُعدَمين.

وفيما هما في غمرة النقاش، اكفهرّت السماء، بغتةً، وانفجرت عاصفةٌ هوجاء، وهزّت المكان صاعقةٌ خشيت، معها، مالكته أن تطيح بها وبملكها، وانطفأ المصباح، وساد ظلامٌ مخيفٌ. وفي رعبها، رجت السيّدة دون بوسكو:

- صلّ، يا أبتِ كي أنجو من الصاعقة، وسأحقّق كلّ طلباتك.
- سأصلّي لكي يساعدك الله، الآن، ودائمًا.

وبغتةً صمتت الصواعق، وانقشعت الأجواء، وارتضت المالكة، مسرورةً، تأجير ملكها بالبدل الذي عرضه دون بوسكو.

٢- الحلاّق الصغير

قصد، يومًا، دون بوسكو، حلاّقًا في تورينو كي يقصّ شعره. فرأى هناك فتًى يتدرّب، واستشفّ فيه عنصرًا جيّدًا لمؤسّسته، فاستوضحه عن اسمه، وعمره، ووالديه، وعلم أنّه يتيم الأب يعيش مع أمّه الفقيرة وشقيقته. ولم يكن قد نال المناولة الأولى، ولا يتابع التعليم المسيحيّ إلاّ عندما تتاح له، سانحةٌ لذلك. فكلّفه بأن يحلق له ذقنه، فاحتجّ صاحب الحانوت بشدّةٍ، مؤكّدًا أنّ الفتى لا يحسن حتّى حلاقة شعر كلب. ولكنّ الكاهن ردّ أنّ على الفتى أن يتعلّم، فليبدأ به، مؤكّدًا استعداده للنتائج، شرط ألاّ يجدع له أنفه.

وبدأت المحنة، وكان الكاهن يضحك ويبكي في آنٍ واحدٍ، وانتشرت الجراح على وجنتيه، ومع ذلك وعد الفتى بمستقبلٍ ناجحٍ، إذا اجتهد وصبر، وأتقن عمله. ودعاه إلى أوراتواره مساءَ يوم الأحد القادم، ولبّى الفتى الدعوة، فلقى أدفأ

ترحيبٍ، وأعذب تسليةٍ. وهمس الكاهن في أذنه كلمته السحريّة، التي طالما وجّهت مستقبل أبنائه في الأوراتوار، وخارجه.

ومنذئذٍ، بات الفتى يلوم زبائن الحلاّق، الذين يتلفّظون بأقوالٍ مُسفّةٍ، أو منافيةٍ للأخلاق السليمة.

وبعد مضيّ بضعة أشهرٍ، توفّيت والدة الفتى. وبما أنّها كانت قد عجزت عن دفع بعض مستحقّات استئجار البيت، فقد رمى مالكه الفتى وشقيقته في الشارع.

واتّفق أن وجد دون بوسكو الفتى، ذات مساءٍ، في زاوية شارعٍ، منتحبًا، ولمّا اطّلع على سبب انتحابه، أخذه إلى أوراتواره وأوجد لشقيقته مكانًا في مأوًى.

وبرع الفتى في مهنة تجليد الكتب، وأضحى رئيس محترف تجليدٍ، وساق حياةً مسيحيّةً لا غبار عليها.

٣- اعتراف السارق

كان دون بوسكو عائدًا من مهمّة كهنوتيّةٍ، مع هبوط الليل، مجتازًا غابةً صغيرةً مُقفرةً. وبغتةً هاجمه رجلٌ مسلّحٌ، هاتفًا: "مالَك أو روحَك". فردّ الكاهن: "لا مال لديّ. أمّا روحي فهي ملك الله، وهو وحده يستطيع أن يأخذها منّي.

– لا تتذاكَ، أيّها الأب. هات مالك أو سأضرب.

حينذاك، تعرّف دون بوسكو في مهاجمه، سجينًا، كان قد أرشده في أحد سجون تورينو. فقال له:

– أهذا أنت يا تونيو؟ من الواضح أنّك لا تفي بوعودك، وأنّك ترتكب عملاً مقيتًا. كنتُ قد وثقتُ بك. وها إنّك غير جديرٍ بالثقة!

وتعرّف السارق دون بوسكو، فأطرق خجلاً، مُحرجًا، وقال متلعثمًا:

– لم أكن أعلم أنّك أنتَ من هاجمتُه، وإلاّ لما فعلتُ.

– هذا غير كافٍ، يا بنيّ، بل عليك أن تغيّر، جوهريًّا، أسلوب حياتك. إنّك تسيء استغلال الرحمة الإلهيّة. فاحذر ألّا تتسنّى لك فرصة ندامةٍ قبل موتك.

– أعدك، يا أبتِ، بتغيير سلوكي.

– يجب أن تعترف.

– سأفعل.

– متى؟

– قريبًا.

– بل في الحال.

وأشار إلى مكانٍ على الأرض، وأوعز إليه بالركوع. تردّد السارق لحظاتٍ قبل أن يمتثل. وطوّق دون بوسكو عنق السارق بذراعه، وضمّه إلى صدره، وسمع اعترافه، ثمّ قبّله، وأهداه ميدالية العذراء مريم المساعِدة، وأعطاه المال الزهيد الذي وجده في جيبه، وعاد برفقته إلى المدينة.

ومنذئذٍ، تحوّل السارق مواطنًا صالحًا.

٤ – غفوةٌ جماعيّةٌ

لطالما ذكرنا أنّ دون بوسكو حرم ذاته النوم، غالبًا. وكانت الطبيعة تنتقم أحيانًا لنفسها، وتستعيد حقوقها، غير عابئةٍ بظروف الزمان والمكان.

فعشيّة يوم عيدٍ، احتشد الأولاد حول كرسيّ اعتراف دون بوسكو. وعند منتصف الليل، وكان القدّيس لم يغادر كرسيّه، منذ ستّ ساعاتٍ، ركع صبيٌّ على كرسيّ اعترافه. وجريًا على عادةٍ، طالما حرص عليها السالزيّون، أدنى الكاهن رأس الفتى إلى صدره. وحينئذٍ استولى عليه النعاس استيلاءً لا يُقاوَم، وبلا شعورٍ أسند الكاهن رأسه على رأس الفتى. وفاجأت الفتى تلك المبادرة من الكاهن، ولكنّه لّما تبيّن أنّ الكاهن ضحيّة نعاسٍ آسرٍ، ارتاح للأمر، وامتنع عن كلّ حركةٍ من شأنها إفساد راحته، وما لبث أن استسلم، هو أيضًا، لسيطرة الكرى. في هذه الأثناء، كان ما زال يحيط بكرسيّ الاعتراف

رهطٌ من الأولاد ينتظرون دورهم، واستهجنوا الخشوع الصامت الذي ساد وتمادى، وسرت إليهم عدوى النعاس، فاستسلموا، هم أيضًا لسطوته. وعند الساعة الثانية فجرًا، أيقظت استفاقةُ دون بوسكو المباغتة المشهدَ بكامله، فاستفاق، أيضًا، الفتى الجالس في كرسيّ الاعتراف، وأمر دون بوسكو أترابه بالإسراع إلى أسرّتهم، على أن يستأنفوا الاعتراف، صباحًا، في يقظةٍ تامّةٍ.

وكان يطيب لدون بوسكو رواية هذا الحادث، الذي كانت ذكراه ترسم على شفتيه بسمةً عذبةً.

ولا بدّ، هنا، من التذكير بحادث إغفاء دون بوسكو، بعد ظهر ذات يومٍ، في حانوت إسكافيٍّ، وسط مدينة تورينو، وقد رويناه في سياق سيرة القدّيس.

٥- الكاهن الأوّل الذي خرّجه دون بوسكو

عام ١٨١٧، كان أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ، والقدّيس لويس دي غونزاغ يستقبلان، كلّ يوم أحدٍ، ألفًا وخمس مئة فتًى، يشاركون في الاحتفالات الدينيّة، ثمّ ينصرفون للّعب والترويح عن أنفسهم. ومع ذلك، كانت أفواجٌ من الفتيان المشرّدين، المنتشرين في المدينة وضواحيها، ما زالوا يتجمّعون في عصاباتٍ، ويتسكّعون تسكّعًا مريعًا.

ولحظ، يومًا، زعيم إحدى تلك العصابات غياب أحد عناصره، واستفسر عنه فقيل له إنّه انضمّ إلى أوراتوار دون بوسكو. ودفعه الفضول إلى معرفة ذلك الأوراتوار، واكتشاف ما يحدث فيه، فهرع إلى ڤلدوكّو، ووجد باب المركز موصدًا، لأنّ الجميع كانوا في الكنيسة. ولكنّ ذلك العائق لم يثنِ عزيمته، فتسلّق جدارًا، وقفز إلى فناء الدار. وفيما كان يتفقّد المكان شوهد واقتيد إلى الكنيسة، حيث كان الأب بوريل يتناول، في عظته، الخطر الذي يتعرّض له

فتيانٌ أبرياء لشراسة ذئابٍ بشريّةٍ تـــودي بهـــم إلى الهـــلاك، أو يتعرّضون لإفساد أترابٍ فاسدين. وأنهى الواعظ عظته بالقول إنّ الأوراتوار يضمن للفتيان جوّ أمانٍ، فإن خطر لذئبٍ أن يمدّ خطمه، لتصدّت له الكلاب الشرسة تصدّيًا يليق به.

هذه الأقوال نفذت إلى أعماق الفتى، فعزم متابعة الاحتفال الدينيّ حتّى نهايته. ولّما شرع المنشدون بالترتيل شاركهم بصوته الجهير الجميل. وعندما خرج من الكنيسة طلب مقابلة دون بوسكو، الذي كان محاطًا برهطٍ من الأولاد. واستقبله الكاهن القدّيس استقبالاً ودّيًّا، ودعاه إلى مشاركة أترابه في اللعب، وامتدح جمال صوته، وتعهّد، إذا هو شاء، بتعليمه الموسيقى وأمورًا أخرى كثيرةً. ثمّ همس في أذنه "الكلمة السحريّة" التي حدّدت مصيره. ومنذئذٍ بات يختلف إلى الأوراتوار بانتظامٍ. وبعدما تلقّى من كاهنٍ أرسله إليه دون بوسكو تعليمًا دينيًّا متينًا، نال مناولته الأولى.

غير أنّ والديه المعارضين لكلّ مظهرٍ دينيٍّ، كانا يفرضان عليه الجوع والبؤس، فكان دون بوسكو يواسيه، ويسانده، وقدّم له ملجأً في حال تفاقم سوء حاله، أو تعرّضه للخطر. واتّفق أنّ والده شتم دون بوسكو، وأوراتواره بألفاظٍ بذيئةٍ، فانبرى الفتى للدفاع عنهما، مؤكّدًا عزيمته على العودة إلى ڤلدوكّو، ومخالفة حظر ذويه الظالم، والمبنيّ على مخالفة وصايا الله. فاستشاط والده غضبًا وسخطًا، وألقمه صفعةً مدوّيةً. وفي الحال جرى الفتى بكلّ سرعة فتوّته إلى الأوراتوار، ولحق به والداه، ونفسهما تجيش حقدًا وانتقامًا، ولكي لا يلحقا به، ويعيداه عنوةً إلى المنزل تسلّق الفتى شجرة توتٍ قرب السور، وتوارى بين أوراقها. ووصل أبوه وأمّه، وطالبا دون بوسكو بقحةٍ أن يعيد لهما ابنهما. وجرى بينهما الحوار التالي:

- ابنكما ليس ههنا.
- ولكن لا بدّ من أن يكون هنا.
- وحتّى لو كان هنا، فلا حقّ لكما باقتحام بيوت الآخرين.

- سأشتكي إلى المخفر، وسأنتزع ابني من براثن الكهنة.
- وأنا، أيضًا، سأرافقكما إلى المخفر، وسأكشف النقاب عن أفعالكما المخزية. وإذا كانت هناك قوانين محترمةٌ، ومحاكم عادلةٌ، فسيكون عقابكما عسيرًا. وذكر الوالدان قتام ماضيهما، فعادا خائبين.

وإثر عودتهما، أُشيرَ إلى الكاهن أنّ الفتى مختبئٌ بين أشجار التوت، فناداه، وكرّر النداء، كي يطمئنه، ويعلمه بانصراف والديه القاسيين، وزوال كلّ خطرٍ عنه. ولكنّه لم يتلقّ ردًّا، فتسلّق سلّمًا ووجد الفتى متقوقعًا على نفسه، جامدًا، عاجزًا عن الحراك، فاقد الوعي. وبكثيرٍ من الرقّة، والحكمة، لامسه، وهزّه، وناداه بصوتٍ عالٍ، إلى أن استعاد الفتى بعض وعيه، ولكنّه تخيّل أنّه بين ذراعي أبيه الشرس الظالم، فأخذ يصيح، ويتخبّط، حتّى كاد يقع ويوقع الكاهن عن السلّم. وظلّ دون بوسكو يلاطفه، ويواسيه، طويلاً، حتّى هدأ روعه، واطمأنّ بأنّه غدا في أمانٍ، فاقتيد إلى الداخل، حيث سارعت ماما

مرغريتا بوسكو، التي راقبت، عن كثبٍ، كلّ ما حدث، ونجحت في منحه الدفء، والعزاء، والأمان، وحساءً منعشًا.

ومنذئذٍ، أمسى للفتى بيتٌ هو الأوراتوار، وأبٌ عطوفٌ، هو دون بوسكو، وأمٌّ حنونٌ هي مرغريتا بوسكو. وما لبث أن برع في مهنة تجليد الكتب. ولكنّ دون بوسكو الذي استشفّ لديه طاقاتٍ فريدةً، دفعه إلى التعلّم. وكان هو معلّمه الأول، فلقّنه اللغة اللاتينيّة، والعزف على البيانو، وأظهر الفتى موهبةً موسيقيّةً باهرةً.

غير أنّ مجال تفوّقه الأسمى كان الورع والتقوى، بعد أن حوّلته رقّة المحبّة التي لم يعهدها من قبل، وتجلّت دعوته الكهنوتيّة بقوّةٍ لا تُقاوَم. فارتدى الثوب الإكليريكيّ في ١٨٥١/٢/٢. وعقب دروسٍ تألّق فيها فكره، رُقّي إلى الكرامة الكهنوتيّة، عام ١٨٥٧. فكان الكاهن الأوّل الذي تخرّج على يدي دون بوسكو وقدّم لكنيسة تورينو خدماتٍ جلّى.

٦- كيف علم؟

كان نائبٌ سابقٌ في مدينة نيس، يقضي عطلته الصيفيّة في تلك المدينة، وكان من أصدقاء دون بوسكو الأوفياء، ومن كبار المحسنين إلى مشاريعه. واتّفق أنّه تحدّث عن الخوارق التي تحدث على يدي دون بوسكو في جلسةٍ اجتماعيّةٍ ضمّت شخصيّاتٍ مرموقةً، ولكنّهم لا يؤمنون بالخوارق، فأثارت رواياته بسمات ريبةٍ وسخريّةٍ. وكان بين الحضور سيّدةٌ علمت أنّ الكاهن القدّيس ما زال حيًّا، فأعلنت:

"سأقوم بامتحانٍ بسيطٍ، فإذا تمكّن هذا الكاهن من كشف كوامن ضميري سأومن بكلّ ما يُقال عنه".

وصفّق لها الحضور مشجّعًا. وفي الحال كتبت السيّدة إلى دون بوسكو طارحةً عليه سؤالها، ولم يتأخّر الجواب الذي اقتصر على بندين:

- عودي إلى زوجك، وتذكّري اعترافاتك بالتاريخ الفلانيّ...

وكان هذا التاريخ يعود إلى عشرين سنةً مضت.

وكان البند الثاني

- "عند تحقيق هذين المطلبين سترتاحين".

غنيٌّ عن القول أنّه لم يكن لدون بوسكو أيّة معرفةٍ بتلك السيّدة.

وحتّى جيرانها كانوا يظنّون أنّها أرملةٌ.

وبدهيًّا اعترفت السيّدة بأنّ لدى دون بوسكو معرفةً مدهشةً بخفايا الضمائر.

٧- كيف أصبح نبيلٌ ماجنٌ راهبًا يسوعيًّا

كان شابٌّ نبيلٌ من تورينو، سليل أسرةٍ مرموقةٍ، وشقيقٌ لكردينال، يجرّع أمّه، يوميًّا، القلق والحزي، بانخراطه في حماقاتٍ مشينةٍ، يلطّخ بها سمعة الأسرة. ودأبت والدته على ردعه برقّةٍ. ولكنّه لم يأخذ، يومًا، بنصائحها، واستمرّ سادرًا في حماقاته وضلاله.

وأُعلن عن رياضةٍ روحيّةٍ في منسك القدّيس إغناطيوس، فسألت الوالدة ابنها عن رأيه في المشاركة بها. ووافق شرط أن تسدّد والدته كلّ ديونه، فلبّت طلبه، وسدّدت بضعة آلاف فرنكٍ، كان مدينًا بها. ورأت في قبوله المشاركة بالرياضة بارقة رجاءٍ إذ كانت تعلم أنّ دون بوسكو سيشارك، أيضًا، في تلك الرياضة، آملةً أن يغيّر مجرّد لقائهما سلوكَ ابنها.

واتّفق أن استقلّ الشاب العربة عينها التي كان دون بوسكو يستقلّها، فتجاذبا أطراف الحديث الودّيّ. وسرعان ما لحظ

الشابّ أنّ الكاهن كان يتوجّع من ثلاثة دمامل كبيرةٍ، فاقترح عليه أن يصلّي، وينال الشفاء، لكي يستطيع متابعة الرياضة بهدوءٍ. وفوجئ بتأكيد الكاهن أنّه لن يتلو أيّ دعاءٍ من أجل شفاء وجعه، ولكأنّه سعيدٌ بوجعه، ما أوقع الشابّ في لجّةٍ من التساؤلات.

وفي أثناء الطريق هبّت عاصفةٌ هوجاء، وضاعفت رجّات العربة آلام الكاهن، ولدى وصوله إلى غايته، كان في أسوأ حالٍ. ومع ذلك حرص الكاهن على حضور الرياضات كلّها، ولم يغبْ عن أيّةٍ منها. غير أنّ قواه خانته، بعد أيّامٍ.

وكان قد حرص على الصلاة راكعًا في السكرستيّا، وأُغمي عليه، وكان الشابّ إلى جانبه فتلقّاه برقّةٍ بين ذراعيه، وحمله إلى غرفته، فرنا بعذوبةٍ إلى ممرّضه المرتَجَل، ثمّ شدّه من لحيته، حتّى أتْكأ رأسه على صدره، وقال له بعباراتٍ تقطر مودّةً:

"ها قد قبضتُ عليك الآن؟ فما عساي أن أفعل بك؟".

هذه الدعابة الأبويّة أذهلت الشابّ النبيل، للوهلة الأولى، وأثّرت فيه تأثيرًا بالغًا، واستدرّت وابل دموعه. وتلا الذهولَ اعترافٌ، وتوبةٌ، وارتداد الشابّ إلى درب التعقّل وسويّ السبيل، ورغبةٌ في التنسّك في أوراتوار دون بوسكو. ولكنّ الكاهن القدّيس وجّهه إلى دير رهبانٍ حيث مكث بضعة أيّامٍ، وقرّر النهج الذي سيسلكه في حياته. ولّما عاد من هذه الخلوة القصيرة، أرسله دون بوسكو إلى جمعيّة اليسوعيّين، حيث استقرّ، واحتلّ، بفضائله وتوقّد ذهنه مركزًا رفيعًا.

٨- ابنا عمٍّ

خريف عام ١٨٦٠، كان دون بوسكو يزور القرى المجاورة لقرية ذويه "بيكّي". وقُدِّم له ولدٌ في العاشرة من عمره، فرنا إليه، ولاطفه، ثمّ رسم بإبهامه إشارة صليبٍ على جبينه، قائلاً: "ابقَ عاقلاً، فتصبح، ذات يومٍ، كاهنًا، وسنحقّق خيرًا جمًّا".

وغابت هذه النبوءة عن بال الصبيّ، إلى أن قُبِل في الأوراتوار، وحينئذٍ، عادت نبوءة دون بوسكو إلى ذاكرته.

واتّفق أنّ الأوراتوار استقبل، في نفس اليوم، ابن عمٍّ للفتى، فسأل الفتى دون بوسكو هل سيصبح ابن عمّه، أيضًا، كاهنًا؟ وقبل أن يجيب حدّق دون بوسكو في عيني الفتى الآخر، بعطفٍ جمٍّ، وقال:

- كلاّ، لن يصبح قريبك كاهنًا. سيرتدي الثوب الإكليريكيّ، ولكنّه لن يتابع مسيرته إلى الكهنوت، غير أنّه سيحقّق، في العالم، خيرًا جمًّا.

وفي الواقع، لم تعهد منطقة "الپييمونت" خادمَ رعيّةٍ، أشدّ تقوًى، وغيرةً على عمل الخير، أكثر من الفتى الذي تنبّأ له دون بوسكو بهذا المصير، أمّا ابن عمّه فقد خلّف سمعةً عطرةً في ميدان التعليم المسيحيّ.

٩- تحريرٌ من الوساوس

كان أحد أوائل طلاّب الأوراتوار ضحيّة وساوس بخصوص خطايا يتوهّم أنّه ارتكبها، وكانت ترهق نفسه. ووقف في الطابور، ليلة عيد الفصح، أمام كرسيّ الاعتراف. وكان مصباحٌ شحيحٌ هو الضوء الوحيد، ولا يشيع في الكنيسة سوى نورٍ ضئيلٍ، ويجعل من العسير أن يميّز دون بوسكو وجوه الراكعين أمامه.

وغالبًا ما كان دون بوسكو يقرأ كوامن الضمائر، فيقول لبعض المتعبين بالوساوس، بمجرّد ركوعهم أمامه: لا داعي لاعترافكم، تستطيعون التناول غدًا.

وجال ببال الفتى الرازح تحت وقر وساوسه: "ليت الأب يقول لي: لا داعي لاعترافك، بوسعك التناول غدًا". وفي هذه الثانية عينها استدعاه الأب وبادره بالقول: "لا داعي لاعترافك وتناول غدًا بطمأنينةٍ".

تبدّد الحمل الذي كان يرهق ضمير الفتى، وأضحى، لاحقًا، "دون فرنسيزيا"، عضو مجلس الجمعيّة الساليزيّة.

١٠- فرنسوا الطالب

عام ١٨٦٢، أُصيب طالبٌ يُدعى فرنسوا بداء ذات الجنب، وكانت إصابته خطيرةً. وذات صباحٍ ساءت حاله، وهمّ كهنةٌ بمسحه مسحةَ المحتضرين، ومنحه الزاد الأخير. وعاده دون بوسكو، بعد احتفاله بالقدّاس. وسأله:

- "هل تشقّ عليك مغادرة هذا العالم؟ هل تودّ أن تبقى معنا أو أن ترحل؟"

- "لستُ أعلم بالتحديد. أمهلني حتّى هذا المساء، كي أُعمل فكري مليًّا".

وإثر لحظاتٍ وجيزةٍ لام نفسَه، لأنّه لم يقرّر في الحال تفضيله الرحيل إلى الفردوس، فقال في نفسه: "إذا سمح لي دون بوسكو، فسأكون أوفر ثقةً باختياري".

وعاد دون بوسكو مساءً، فبادر الطالبُ بالقول، قبل أن يُسأَل:

- "لقد وطّنتُ عزمي. وإنّي أُفضّل الرحيل، إذا وعدتني بأنّني ماضٍ إلى الفردوس".

-" فات الأوان، يا فرنسوا، ستمكث معنا بعض الوقت، ولكن تأهّب لكثيرٍ من الآلام!"

وفي الواقع شُفي فرنسوا، ولكنّ ساقيه ابتليتا بالكثير من الكلوم الموجعة، وتكبّد جمًّا من الآلام المضنية.

ومع ذلك أصبح كاهنًا، وأدّى خدماتٍ جليلةً قبل أن يرحل عن هذه الأرض، بعد اثنتي عشرة سنةً من المعاناة.

١١- فلنصلِّ من أجله

كان دون بوسكو يتنـــزّه مع ثُلّةٍ من طلاّبه على التلال، ويغبّون جرعاتٍ عذبةً من الفرح والبهجة. وبغتةً دعاهم الكاهن القدّيس إلى الصلاة من أجل رفيقٍ صغيرٍ لهم في تورينو، سيلقى حتفه صباح الغد.

شقّ على المتنـــزّهين أن تفسد هذه العاصفة متعـــة ذلـــك اليوم الاستثنائيّ. غير أنّ دون بوسكو ركع بخشوعٍ وحـــزنٍ، وتلا صلواتٍ ردّدها الفتيان بصوتٍ عالٍ.

وفي الصباح وردت برقيّةُ نعوة وفاة فتًى في الأوراتوار.

١٢- بركة دون بوسكو

عام ١٨٦٦، قرّرت جمعيّة بنات المحبّة افتتاح مركز في مدينة "كوني" الإيطاليّة، من أجل استقبال الفتيات الفقيرات، وتلقينهنّ الأعمال المنـــزليّة. وكُلِّفت الأخت "أركانج ڤولونتي" (Archange Volontè) ورفيقةٌ لها بهذه المهمّة.

ومنذ وصولهما إلى كوني اكتشفت الراهبتان مشقّة المهمّة. فالمكان لا يحتوي سوى فراشين باليين، وبضع كراسٍ عتيقةٍ، وجدرانٍ لا توحي بالأمان. وفي مناخ البؤس هذا، كان عليهما إطعام وتربية فتاتين، ولا أثر لموارد مادّيّةٍ.

واتّفق أنّ دون بوسكو كان مارًّا، آنذاك، بالمدينة، فدعاه كاهنٌ يسوعيٌّ إلى زيارة مكان الراهبتين. ومنذ النظرة الأولى استشفّ الكاهن القدّيس، في ذلك الحرمان المطلق، مهد عملٍ إلهيٍّ، وطمأن الراهبتين، قائلاً: "أرى أنّ غياب النافل هنا لا يعيقكما. فكونا في سلامٍ، وسيباركُكما الربّ، وفي الوقت

الذي سيحدّده سينمّي مشاريعكما، وسيكون لكنّ بيتٌ فسيحٌ يتيح لكنّ تحقيق خيرٍ جمٍّ". وباركهما ومضى.

وعقبَ وفاة القدّيس، شوهدت الأُخت "ڤولونتي" راكعةً عند قبره، شاكرةً رجل الله، حيثما كان، من أجل مباركته "قصر البؤس"، الذي تغيّرت ملامحه وأحواله، تغيّرًا كلّيًّا، وأمسى يضمّ عشر راهباتٍ، وأكثر من مئة فتاةٍ فقيرةٍ صغيرةٍ، والجميع ينعمون بدلال العناية الإلهيّة.

والجميع يقرّون بأنّ انطلاقة هذا المركز وازدهاره مـــديـنان لبركة دون بوسكو.

١٣- العذراء سنُعنى بالباقي

اعتلّ كاهنٌ يتولّى التعليم في معهدٍ ساليزيٍّ، من جرّاء إنهاك ذاته بلا حسابٍ. وشخّص طبيبٌ أنّ لديه فقر دمٍ خطيرًا، وبدءَ إصابةٍ في رئتيه، وفرض عليه راحةً تامّةً، وصمتًا مطلقًا، تحت طائلة مضاعفاتٍ لا شفاءَ منها، وامتناعًا عن الحليب ومشتقّاته، وعن الفواكه.

وتعهّد مدير المعهد بالسهر على تنفيذ وصفة الطبيب بدقّةٍ وأمانةٍ. ولكنّه وقع في حيرة إيجاد بديلٍ للأستاذ. ولم يكن لـــه سبيلٌ للخروج من تلك الأزمة إلاّ باستشارة دون بوســـكو، الذي أجاب مباشرةً برسالةٍ إلى المدرّس المعتلّ، جاء فيها:

"عُدْ بهدوءٍ واطمئنانٍ إلـى التدريس، ولا تبالِ بوصفات الطبيب. تناول الطعام الذي يناسبُك، وتستسيغه. وستتولّى السيّدة العذراء الباقي.

وبصفته ساليزيًّا حقًّا، طوى المدرّس رسالة دون بوسكو، ووضعها في جيبه، وعاد إلى صفّ التدريس. وكلّما تقدّم في الشرح. كانت قواه تعود إليه، ثانيةً فثانيةً، وأدهش صوته الجهور، ووضوح تفسيره، تلاميذه.

هذا الشفاء الفوريّ استمرّ. وانقطع الطبيب عن عمله، بعدما تبيّن زيف وضعه الطبّيّ، وعدم قانونيّته.

١٤- كيف أنهض دون بوسكو مقعدًا من سريره!

في شهر تشرين الثاني ١٨٦٦، كانت كنيسة العذراء المساعِدة في طور البناء، وذات صباحٍ، احتاج دون بوسكو إلى أربعة آلاف فرنكٍ، من أجل دفع أتعاب بنّائي قبّة الكنيسة، ومتعهّدي البناء، ولم يكن يملك منها فرنكًا واحدًا.

ومنذ صباح اليوم التالي، انطلق معاونه دون ميشيل روا، المسؤول عن ماليّة الجمعيّة، وعددٌ من المساعدين، علّهم يجمعون المبلغ المطلوب، فاجتازوا شارعًا فشارعًا، وتسلّقوا سلالم لا تحصى، وعادوا، ظهرًا، بمبلغ ألف فرنك، مُحرَجين، خجلين، حائرين في ما عساهم يقولون. غير أنّ دون بوسكو ابتسم، وقال: "هيّا نتغدّى، وبعدئذٍ سأمضي أنا وسآتي بباقي المبلغ".

وبعد جولاتٍ عشوائيّةٍ، لم تُؤتِ جدوى، توقّف عند ناصية شارعٍ متسائلاً في أيّ اتّجاهٍ سيقود خطواته، وإذ بخادمٍ يرتدي زيّ خدم النبلاء والأغنياء، يقترب منه ويسأله:

- "ألستَ، أنتَ دون بوسكو؟".

- بلى أنا هو. وبمَ أستطيع أن أخدمك؟
- سيّدي أرسلني كي أدعوك إليه في الحال.
- وهل هو مقيمٌ بعيدًا من هنا؟
- كلاّ، بل هو يقيم في نهاية هذا الشارع، في هذا الصرح الفاخر. هذا هو منزله. فهو طائل الثروة، وقد يستطيع مساعدة كنيستك.

وأُدخل دون بوسكو إلى غرفة المريض الفسيحة الفاخرة، حيث كان المريض المسنّ مستلقيًا في سريره. وقد أبدى سرورًا بالغًا برؤية دون بوسكو، وبادره بالقول:

- أيّها الأب الموقّر، أنا بحاجةٍ ملحّةٍ إلى صلواتك كي تساعدني على النهوض واقفًا.
- منذ متى أنت مقعدٌ؟
- لم أغادر سرير الألم هذا، ولم أتحرّك، منذ ثلاث سنواتٍ. ولا يتيح لي الأطبّاء أيّ أملٍ في الشفاء. ولكن إذا حظيت بأيّ تحسُّنٍ فسأقدّم مساعداتٍ لمشاريعك.

- في الواقع نحن، في هذا اليوم بالذات نحتاج إلى ثلاثة آلاف فرنكٍ، من أجل كنيسة السيّدة العذراء المساعِدة.

ولكأنّ المبلغ قد صعَق الثريّ المقعد. وراح يكرّر "ثلاثة آلافٍ، ثلاثة آلافٍ..." هل فكّرت بما تعني ثلاثة آلافٍ؟ لو كان الأمر يتعلّق ببضع مئاتٍ من الفرنكات، لهان الأمر. ولكن ثلاثة آلافٍ!..."

حينئذٍ جلس الكاهن. وبكلّ هدوءٍ، راح يناقشه في أُمورٍ سياسيّةٍ. فاعترض الثريّ المقعد:

- أنا لم أستدعِك كي نتناقش في السياسة، بل من أجل شفائي.
- وأنا بيّنت لك وسيلة شفائك. ولكنّك ترفض اتّباعها.
- وهل تستهين، أنت، بمبلغ ثلاثة آلافٍ؟
- الشأن شأنك.

وانطلق الكاهن يتكلّم عن الطقس والمطر، وأمورٍ تافهةٍ، غير مبالٍ. فتوسّله الثريّ المقعد:

- احصل لي على شيءٍ من الراحة، ولن أنساك في آخر السنة.
- آخر السنة؟! ألم تفهم أنّنا بحاجةٍ إلى هذا المبلغ قبل هذا المساء؟
- هذا المساء؟ أنت تعلم أنْ لا أحد يحتفظُ بمثل هذا المبلغ في بيته. الأمر يقتضي ذهابي إلى المصرف، ومعاملاتٍ.
- لمَ لا تذهب إلى المصرف في الحال؟
- هل تمزح؟ منذ ثلاث سنواتٍ لم أنزل عن سريري. هذا مستحيلٌ.
- لا شيءَ يستحيل على الله، وعلى أمّنا العذراء المساعِدة.

ودعا الكاهن جميع خدم البيت إلى غرفة المريض، وكان عددهم يناهز الثلاثين. ولقّنهم صلواتٍ للقربان المقدّس، وللسيّدة العذراء المساعِدة، وتلاها معهم. ثمّ دعاهم إلى المجيء بثيابٍ لصاحب البيت، فاحتاروا، إذ إنّ الرجل لم يرتدِ ثيابًا

خارجيّةً، منذ ثلاث سنواتٍ، وهم ما عادوا يعرفون أين هي ثيابه، وهل هي ما زالت مناسبةً له.

ونفد صبر سيّد البيت، فصرخ:

- امضوا سريعًا واشتروا ثيابًا ترونها مناسبةً، وافعلوا كلّ ما يطلبه الكاهن.

في هذه اللحظات جاء الطبيب، واطّلع على ما يجري، فحاول إيقاف ما عدّه مهزلةً وجنونًا. وجيء بالثياب فارتداها الرجل الثريّ، وأخذ يخطر في غرفته، رواحًا ومجيئًا، بخطواتٍ واسعةٍ، مزدهيًا باستعادة قواه، ومذهلاً الطبيب، وكلّ أهل البيت. وطالب بإعداد العربة، والتهم ما أُعِدّ له من طعامٍ بشهيّةٍ ونَهَمٍ.

وبنشاطٍ وهمّةٍ هبط السلّم، واستقلّ العربة، ثمّ لم يلبث أن عاد من المصرف، وقدّم لدون بوسكو الثلاثة آلاف فرنكٍ، وهو يردّد: "لقد شُفيت، لقد شُفيت..."

وقال له دون بوسكو:

- لقد أخرجتَ مالك من المصرف، والسيّدة العذراء المساعِدة انتشلتكَ من سريرك.

ومنذئذٍ، أمسى ذلك الرجل من أسخى المحسنين إلى مشاريع دون بوسكو، والمساعدين على إكمال بناء كنيسة السيّدة العذراء المساعِدة.

١٥- دقّة العناية الإلهيّة في حلّ أزمات القدّيس في حينها.

كثيرةٌ هي الحالات التي أنقذت فيها العناية الإلهيّة، دون بوسكو، من أزماته الماليّة في اللحظة الأخيرة. وإليكم حفنةً من الأمثلة عليها:

(•) كانت ديون أوراتوار تورينو حيال متعهّدٍ قد بلغت ثلاثين ألف فرنكٍ. وضاق المتعهّد ذرعًا بإرجاء دفع مستحقّاته، مرّةً تلو مرّةٍ. فجاء الأوراتوار يجيش غيظًا، متأهّبًا لإفراغ جعبة غضبه. وحذّر المسؤول الماليّ في الأوراتوار بأنّه لن يغادر قبل استيفاء حقّه حتّى الفلس الأخير. وأبلغه المسؤول الماليّ أسفه، لعدم امتلاكه أيّ مبلغٍ يمكن دفعه له. فأصرّ الرجل على مقابلة دون بوسكو. واقتيد إلى غرفة انتظار دون بوسكو، المكتظّة بمنتظري دورهم لمقابلته، وجلس، هو أيضًا، مدمدمًا غيظه، ونفادَ صبره.

وفي هذه الأثناء دخل شخصٌ يرتسم الصلَف على محيّاه، لا يبالي بأحدٍ ولا يصغي إلى أحدٍ، صارخًا: "أريد مقابلة دون بوسكو في الحال". وعبثًا حاول المسؤول عن النظام إقناعه بانتظار دوره، أسوةً بالآخرين. ولكنّه بعد أن تبيّن غزارة عدد المنتظرين، اقتحم غرفة دون بوسكو الذي كان يستقبل زائرًا آخر، واستفسره دون بوسكو عمّا يريد، موضحًا أنّه لن يستطيع الاستماع إليه، قبل الذين ينتظرون منذ ساعاتٍ. فأقرّ بأنّه مستعجلٌ، ولا يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ، فدعاه دون بوسكو إلى الجلوس، وسأله عمّا جاء به إليه، ولكنّه أبى الجلوس، وسلّم الكاهن رزمةً، وودّعه ملتمسًا منه الصلاة من أجله، وانصرف.

ودخلت، في إثره، كونتيسةٌ، مبديةً قلقها، وخشيتها من أن يكون ذلك الرجل الفظّ، الذي لم ترتَح إلى ملامحه، ولا إلى سلوكه، قد آذى الكاهن القدّيس، بشيءٍ. فطمأنها بأنّ أذاه اقتصر على منحه رزمةً تركها ومضى، وفتحها، فإذ بها تحتوي ثلاثين ورقةً من فئة ألف فرنك...

ودخل المتعهّد الغاضب بعد طول انتظـــار، فســـلّمه دون بوسكو الرزمة التي احتوت مبلغ دينه كلّه. فاعترى المتعهّـــدَ الخجلُ عن كلّ ما صدر عنه، وأمعن في الاعتذار، ومع ذلـــك ظلّ مستهجنًا ادّعاء مسؤول الأوراتوار الماليّ بأنْ لا مال لدى المؤسّسة لسداد دينه.

(•) وذات يومٍ، قدم جابي ضرائب من أجل تحصيل مبلغ ثلاث مئةٍ وخمسةٍ وعشرين فرنكًا، مفروضةٍ على الأوراتوار، وكانت المهلة القصوى لدفع هذا المبلغ الزهيد هي ظهر ذلك اليوم عينه، وإلاّ على الجابي البدء بالتنفيذ، وبالملاحقة القانونيّة، في الحال. وفتّش المسؤول الماليّ في صندوق التقادم، عند بوّابة المؤسّسة، وفي كلّ مكانٍ، ولكنّه لم يعثر على أيّ مبلغٍ. ولجأ إلى دون بوسكو، وإذ به، هو أيضًا، خالي الوفاض. وبلا قلقٍ استأنف عمله. وإذا بالباب يُقرع، ويدخل رجلٌ قائلاً: "أنا لست صاحب مالٍ، ولكنّني ادّخرت هذا المبلغ الصغير من أجل أبنائك، فاقبله منّي". وكان المبلغ يساوي بالضبط مبلغ الضريبة المفروضة. وأُرسل ساعٍ في أعقاب الجابي لعلّه يلحق به قبل الظهر. ولكن الموعد كان قد فات، وحان أوان التنفيذ. ومع ذلك التقى الساعي الجابي، وهو ما زال في طريقه إلى الوزارة، إذ كان قد تلكّأ في الانطلاق. ودفع المبلغ المطلوب، وطوي الأمر، بلا مخالفةٍ، ولا دعاوى، ولا نفقاتٍ نافلةٍ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الرجل الذي تبرّع بهذا المبلغ الزهيد قد انضمّ، لاحقًا، إلى الأوراتوار، وأصبح كاهنًا ساليزيًّا.

(•) وفي نوبةٍ أخرى، كان دون بوسكو واقعًا في ضائقةٍ خانقةٍ، من جرّاء إنذار خبّازه المُعْتَمَد بالتوقّف عن تزويده بالخبز اليوميّ، ما لم يسدّد له مستحقّاته التي ارتقت إلى مبالغ طائلةٍ.

وإذا بكونتٍ يزور دون بوسكو، ويسأله أن يصلّي، هو وأبناؤه، من أجل شفاء زوجته، المبتلاة بمرضٍ خطيرٍ، وقدّم له مبلغًا يساوي نصف دين الخبّاز.

ودعا دون بوسكو وأبناء الأوراتوار دعواتٍ خاصّةً حارّةً لهذا الغرض بكثير من الحرارة. وبعد ثلاثة أيّامٍ عاد الكونت زافًّا بشرى شفاء زوجته، وقدّم له مبلغًا مماثلاً للمبلغ الأوّل، سدّد به كامل دين الخبّاز.

(•) في شهر آذار من عام ١٨٨٠، أمضى دون بوسكو ثمانية أيّامٍ في مدينة نيس. وبهذه المناسبة قدّم وجيهٌ من المدينة وليمةً لجميع أبناء مركز رعاية القدّيس بطرس، ودعا إليها العديد من أعضاء الجمعيّة الساليزيّة.

وقُبَيْل الجلوس على المائدة كان دون بوسكو يتحدّث مع محامٍ، يخدم مشاريع الساليزيّين بغيرةٍ، وفي سياق الحديث، كان الكاهن القدّيس قد باح للمحامي الصديق، أنّ كاپيلاّ المراكز ممعنةٌ في الصغر، وأنّها غير مناسبةٍ، فلا بدّ من إيواء الربّ إيواءً أكثر لياقةً به. وقدّم له تصميمًا لكاپيلاّ بديلةٍ، أعدّه مهندسٌ صديقٌ لهذه الغاية، وقدّر تكاليفه بثلاثين ألف فرنك. واعترض المحامي، مبيّنًا أنّ الحصول على ثلاثين ألف فرنك، في نيس، هو ضربٌ من المستحيل، فقد كان الشتاء شاقًّا جدًّا، ولا سيّما أنّ الكهنة كانوا قد استرسلوا طيلة أشهرٍ، أثناء مواعظهم، في استدرار المساعدات، وأنّ حملات اليانصيب، من أجل جمع مساعداتٍ للمعوزين كانت جفّفت الجيوب والمحافظ.

ومع ذلك، أكّد دون بوسكو حاجته إلى ذلك المبلغ في ذلك اليوم عينه، كي يباشر بناء الكابيلاّ الجديدة.

ثمّ دُعي الجميع إلى المائدة، ولمّا حان وقت تقديم الحلويات، نهض الكاتب بالعدل الذي يشارك في المأدبة. وزفّ البشرى، غير المتوقّعة:

- "يا أبتِ، أبلّغك أنّ فاعل خيرٍ قد أعطاني اليوم، من أجلكم ثلاثين ألف فرنك، ويمكنكم استلام المبلغ من مكتبي.

فضمّ دون بوسكو يديه، وتطلّع إلى السماء، وهتف:

" شكرًا لك أيّتها العذراء المساعِدة!".

وذُهل المحامي كيف لُبّي طلب الكاهن القدّيس في الحال.

(•) وروى دون بوسكو بنفسه كيف تعيّن عليه، يومًا، دفع مبلغ خمسة عشر ألف فرنك، في الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم، لمتعهّد بناءٍ لقاء أعمالٍ قام بها لأجل بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس في روما.

وعند الساعة الرابعة والنصف، لم يكن يملك سنتيمًا واحدًا، وإذ بكاهنٍ يأتيه بالمبلغ المطلوب، في ظروفٍ يصعب فهمها. فلم يكن في برنامج ذلك الكاهن الغريب أن يسافر ذلك اليوم. ولكن، من جرّاء التباسٍ وجد نفسه في قطارٍ، لم يكن يعلم مقصده بالتحديد. وإذ به عند دون بوسكو، حاملاً إليه المبلغ الذي كان في أشدّ حاجةٍ إليه، في ذلك التوقيت بالضبط.

تلك هي مفاجآت العناية الإلهيّة!...

ما أكثر الذين يُنكرون فائق الطبيعة، مع أنّه يحيط بنا في كلّ مكانٍ، وفي كلّ وقتٍ، وعيوننا الملتصقة بالأرض تأبى التطلّع إلى فوق، ورؤية النور.

١٦- موتٌ بلا خوفٍ

كان دون بوسكو قد نظّم، عام ١٨٦٦، حملة يانصيبٍ كبيرةً من أجل جمع الأموال التي تقتضيها مشاريعه التي كانت تعهد نموًّا مدهشًا. وفي هذه الأثناء تلقّى، من روما، رسالةً غريبةً، تضمّنت طلبًا وعرضًا من مركيزةٍ معروفةٍ، كتبت:

« مع أنّي سعيدةٌ بقدر ما يمكن لإنسانٍ أن يكون سعيدًا على هذه الأرض، غير أنّ غمًّا مريعًا لا يبارحني. ففكرة الموت تصيبني بعذاباتٍ يتعذّر وصفها. وإيماني الواهن عاجزٌ عن تخطّي هذه المخاوف اللاإراديّة. وها أنا، فيما أكتب إليك، تتولاّني رجفةٌ وتشنّجاتٌ مريعةٌ.

إنّي مستعدّةٌ لكلّ التضحيات كي أتخلّص من هذا الشعور المضني. ولذلك أتوجّه إليك. فالوقت يكرّ، ومرضي لا يرحم، وقد يودي بي، قريبًا، إلى عواقب وخيمةٍ. لذلك أتوسّل إليك التماس من عطف العذراء الحنون، مريم المساعِدة، تحريري من خوف الموت، فأشهد اقتراب ساعة الرحيل، بلا

جزعٍ. وأنا أعدك، منذ الآن، أنا المتعاونة مع مشاريعك بأن أكون خادمتك، ورهن إشارتك، وأمةً لأيتامِك، فأنفق كلّ ثروتي، وأبذل كلّ نواياي الطيّبة، وكلّ ما تبقّى لي من فسحة حياةٍ، من أجلكم. ولن أضنّ بشيءٍ، ممّا أملكه، لكي أصبح أداة العناية الإلهيّة لحياتكم. ورجائي هو أن تنقذني مريم المساعِدة من جزع الخوف من الموت الذي يؤرّقني.»

وبلا تلكّؤٍ ردّ دون بوسكو، مع عودة البريد، مؤكّدًا:

« ثقي بأنّ السيّدة مريم المساعِدة قد منحتك، منذ الآن، النعمة التي تطلبينها، فستموتين بلا خوفٍ، بل حتّى بلا شعورٍ بالموت. فِي بوعدِكِ، وستفي العذراء القدّيسة بوعدها.»

وكرّت السنوات، ولم تخلف المركيزة بالتزاماتها. ومع أنّ العناية الإلهيّة كانت تستنهض لصالح مشاريع دون بوسكو تضحياتٍ رائعاتٍ، كانت تضحيات المركيزة أشدّها ألقًا، وتميّزًا وسخاءً. ولكأنّها لم تعُد تحيا وتتنفّس إلاّ من أجل أيتام دون بوسكو.

وفي أواخر عام ١٨٧١، قالت، يومًا، المركيزة لزوجها: "منذ زمانٍ، لم أعترف اعترافًا عامًّا. وإذا رأيتَ من المناسب، فسأكرّس أيّام هذه السنة الأخيرة استعدادًا لذلك". فردّ الزوج المفعم إيمانًا مسيحيًّا: "إنّه إلهامٌ رائعٌ، فاتّبعيه".

وفي اليوم الأخير من كانون الأوّل أدّت المركيزة اعترافها العامّ، وفي الغد، أي في اليوم الأوّل من السنة الجديدة تناولت، ودعت أسرتها كلّها إلى الغداء، وهي تفيض فرحًا غير معتادٍ.

وبغتةً طلبت من خادمٍ فتح النوافذ، وكانت النوافذ مفتوحةً. وكرّرت طلبها مدّعيةً أنّ الغرفة مظلمةٌ. وكرّر الخادم، باحترامٍ، أنّ النوافذ كلّها مفتوحةٌ.

وخيّم الصمت، وتساءل الجميع عن سرّ هذيانها، وإذ بها، وكأنّ خاطرةً طارئةً أنارتها، فهتفت بلهجةٍ مؤثّرةٍ: "أَنْج" (وهو اسم زوجها). ربّما أنا أموت، وانتشرت على محيّاها مسحة بهجةٍ سماويّةٍ، وكرّرت: "إنّي أموت، إنّي أموت"، وفارقت الحياة.

لقد وفت مريم المساعِدة بوعدها. وسارع زوجها إلى إبلاغ دون بوسكو واصفًا ظروف رحيلها. وختم رسالته بقوله: "لست أبكي موتها بصفته مصيبةً، بل أشكر للسيّدة العذراء المساعِدة، هذه النعمة السامية، وموتها الفرِح".

١٧- كيف نجا الأوراتوار من دعوى تخلّفٍ عن الدفع

تلقّى دون رُوا، المسؤول الماليّ عن الأوراتوار إنذارًا بوجوب دفع سندٍ في اليوم التالي. ولم يكن مبلغ السند كبيرًا، ومع ذلك، كان لا بدّ من توفيره في وقته.

وبما أنّ دون بوسكو كان يقتضي إطلاعه على أُمور دفع الديون، ولا سيّما بدفع سنداتٍ موقّعةٍ، أطلع دون روا رئيسه على أمر السند، وكان دون بوسكو منشغلاً جدًّا، فاكتفى بالقول: "تدبّر، أنت الأمر"، واستأنف عمله. ولطالما اعتاد دون رُوا مثل هذه النصائح. فجال في كلّ أقسام الأوراتوار، وأفرغ صناديق المكتبة، والمطبعة، والسكرستيّا، وكان صندوقه الخاصّ، حسب المألوف، خاويًا. وعدّ كلّ ما عثر عليه، وأعاد عدّه مرّاتٍ، فتبيّن نقصًا بثلاثين فرنكًا وبضعة سنتيماتٍ عن المبلغ المطلوب، فعاد إلى دون بوسكو، واعترف بمبلغ النقص، ولم يتلقّ منه سوى الجواب المعتاد: "تدبّر الأمر". حينئذٍ، ذكّر دون رُوا رئيسه بأنّه سيسافر في الغد باكرًا، وإذا حان الظهر

ولم يُدفع السند بالكامل، فستُقام دعوى تخلّفٍ عن الدفع (پروتستو) بحقّ الأوراتوار، ومع معرفة دون بوسكو بوخامة عواقب "البروتستو"، لم يغيّر شيئًا من موقفه، مؤكّدًا: "عليّ أن أسافر فتدبّر الأمر بنفسك!".

ومضى معظم وقت قبل ظهر الغد في انتظار وصول الثلاثين فرنكًا، واضطرّ دون رُوا إلى تذكير رئيسه بمخاطر دعوى التخلّف عن الدفع، وبغتةً وصل الفارس "أوثشيلّيتي" (Occelette)، وطلب مقابلة دون بوسكو الذي بدأ بالاعتذار لأنّ عليه السفر حالاً. فأجاب الفارس: "الأمر يتعلّق بالمال". فردّ الكاهن القدّيس: "المال من اختصاص دون رُوا". أعطِه إيّاه سريعًا، ورافقني فنتكلّم في الطريق".

كان الفارس من المحسنين المرموقين للأوراتوار، ولطالما اعتاد المجيء كلّ نهار سبتٍ بتقدمةٍ. وفي الطريق أخبر دون بوسكو أنّ شيئًا دفعه إلى المجيء، يوم أربعاء، من أجل دفع ثمن بطاقات يانصيب. فسأله دون بوسكو عن قيمة المبلغ فأجاب: "ثلاثون

فرنكًا وبضعة سنتيماتٍ". فقال له: "إذن سيفسّـــر لـــك دون روا، بأنّ مجيئك كان إلهامًا إلهيًّا، وإلاّ لأُقيمت علينـــا، عنـــد الظهر دعوى تخلّفٍ عن الدفع"!

١٨- دعوةٌ

في مدينةٍ قريبةٍ من تورينو، كان شابٌّ قد أنهى لتوّه دراسته الثانويّة، وفي داخله يضجّ ميلٌ إلى الحياة المكرّسة. ولكنّه كان يتيمًا، وجدّه الذي يتولّى أمره قد قرّر إعداده لمهنة التجارة، واتّخذ التدابير لذلك، وأعدّ له وظيفةً في شركةٍ فرنسيّةٍ في مدينة ليون، وحدّد موعد سفره إلى هناك يوم السبت الآتي.

ولكن في مطلع الأسبوع، جاء به رفيقان إلى دون بوسكو، الذي وصل، في ذلك اليوم عينه، إلى المدينة. ورفيقاه هذان كانا سيباشران سنتهما الإكليريكيّة الثانية، ويشدّهما شوقٌ آسرٌ إلى تعرّف دون بوسكو، الذي سمعا عنه الكثير، في حين لم يكن رفيقهما الذي استصحباه، قد سمع عن ذلك الكاهن شيئًا.

واستقبل دون بوسكو الشبّان الثلاثة، وفي حين لم يُلقِ بالاً إلى الإكليريكيّيْن، دنا مباشرةً من رفيقهما، وحدّق إليه بتمعّنٍ وعطفٍ، وأخذ بيده، وقال: "يجب أن يدخل هذا الشحرور قفصنا".

وتلقائيًّا، تأثّر الشابّ بالكاهن، واستيقظت دعوته التي كانت قد اجتازت غفوةً عابرةً، ولكنّ جُذوتها لم تفتُر، وعادت آنذاك إلى التوقّد، مسيطرةً على نفسه سيطرةً لم يعهد لها، قطّ، مثيلاً.

واتّفق أن جيء إلى دون بوسكو، في هذه الأثناء، بفتاتين شقيقتين. إحداهما في الثامنة، والأخرى في السادسة من عمرها، كانتا قد فقدتا البصر، فقدانًا شبه كاملٍ. فإحداهما كانت، بصعوبةٍ، تميّز بين النهار والليل، والأخرى كانت تعاني التهابًا مزمنًا في عينيها، لم يُعالَج، فأدّى إلى إغلاق جفنيها إغلاقًا محكمًا، تعذّر حتّى على والدها، الفلاّح المنيع، فتحهما.

ونصح دون بوسكو الأسرة بالشروع بتساعيّة صلواتٍ للسيّدة العذراء المساعِدة، قوامها تلاوة ثلاث مرّاتٍ، يوميًّا، كلاًّ من أبانا والسلام، والمجد، وتحيّة أيّتها الملكة. وكلّف الشابّ الزائر بمساعدة الأسرة على إتمام تلك التساعيّة. ويومَ التساعيّة الأخير، بالضبط، استعادت إحدى الفتاتين نظرها

كاملاً، وانفتح جفنا شقيقتها، ولكن ظهرت على إحدى عينيها بقعٌ تحول دون سلامة رؤيتها الواضحة.

وكان الشابّ شاهدًا على التساعيّة، وعلى الشفاء الفوريّ. ووطّد هذا الواقع الحيّ عزيمته على تكريس ذاته للربّ، وأصبح كاهنًا ساليزيًّا خدم أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ في ڤلدوكّو، ثمّ أضحى رئيسًا لأوراتوار القدّيسَين بطرس وبولس في باريس.

١٩- الطبيب الملحد

حضر، يومًا، طبيبٌ ملحدٌ، بارعٌ في مهنته إلى أوراتوار ڤلدوكّو، وطلب مقابلة دون بوسكو، وبادره بالقول:

- "يُشاع أنّك تشفي جميع الأمراض".
- "شائعةٌ كاذبةٌ. فأنا لا قدرة لي على شفاء أيّ مرضٍ.
- ولكنّ كثيرين أكّدوا لي قدرتك، وذكروا لي أسماء الذي شُفوا، والأمراض التي شفيتهم منها.
- في الواقع كثيرون يأتونني ملتمسين نعمًا بواسطة السيّدة العذراء المساعِدة. وقد يشفون بعد التزامهم بفترة صلواتٍ محدّدةٍ، ولكن ليس لي في شفائهم يدٌ، لأنّ هذه النعمة هي عمل السيّدة العذراء.
- إذن، لتشفِني، أنا أيضًا، فأومن بمعجزاتك.
- ما هي علّتك؟

وكان الطبيب مصابًا بالصرع، واعترف بأنّ هذه العلّة

اشتدّت عليه وتواترت نوباتها منذ نحو سنةٍ. فلم يعد يجرؤ على الخروج بمفرده، وبلا مرافقٍ. وقد فشلت جميعُ وسائل العلاج في شفائه، ولذاك جاء إليه، أُسوةً بالعديدين. وردّ الكاهن:

- افعل، إذن، مثل ما يفعله الآخرون. إركع واتلُ معلي بضع صلواتٍ، ووطّن عزيمتك على تطهير نفسك، وغوثها، والاعتراف والمناولة. وستعزّيك العذراء.
- لا أقوى على ما تطلبه. فأرجوك أن تصف لي علاجًا آخر. فإنّي إذا نفّذتُ نصيحتك، سأكون قد اقترفت عمل رياءٍ فاضحٍ، فأنا لا أؤمن لا بالله، ولا بالعذراء، ولا بالصلوات، ولا بالعجائب.

ولبث دون بوسكو، مدى لحظاتٍ، واجمًا، إلى أن ألهمه الله كلماتٍ نفذت إلى قلب الطبيب، الذي ركع ورسم إشارة الصليب، وكان هو أوّل المدهوشين من عمله هذا، بعد مضيّ أربعين سنةً على انقطاعه عنه. وصلّى، وأخيرًا اعترف: وفي الحال داخله شعورٌ بالشفاء.

ومنذ تلك اللحظة لم تنتَبْهُ أيّة نوبة صرعٍ.

ومنذئذٍ، اعتاد زيارة الأوراتوار، وتقديم الشكر للسيّدة العذراء المساعِدة التي منّت عليه بشفاء جسده ونفسه معًا.

٢٠- شفاء جنرالٍ

في تورينو اعتلّ جنرالٌ علّةً خطيرةً، أودت به إلى عتبات الموت. واستُدعي دون بوسكو، فعرّفه، ولكنّه رفض تلبية طلب ذويه بمنحه الزاد الأخير، رغم تأكيد الأطبّاء أنّ موته بات وشيكًا.

واكتفى الكاهن القدّيس بقوله للجنرال: "بعد غدٍ سنحتفل بعيد السيّدة العذراء المساعِدة، فصلِّ لها بحرارةٍ، واشكر لها شفاءك، وتعالَ، بعد غدٍ، إلى الكنيسة، وتناول الإفخارستيّا.

وفي الغد، تفاقمت حال الجنرال سوءًا. وبدا موته الوشيك شبهَ مؤكّدٍ، وخشي ذووه أن يرحل غير مزوّدٍ بالأسرار الخلاصيّة كلّها. ووقعت أُسرتُه في حيرةٍ خانقةٍ. فدون بوسكو كان قد أوصى بألاّ يعطى الجنرال مسحة المحتضرين في غيابه، فأرسلوا على جناح السرعة، عند الساعة الثامنة مساءً، من يبلّغ دون بوسكو أنّ الجنرال يواجه خطر الموت الفوريّ، وأنّ

الأطبّاء يشكّون في قدرته على اجتياز تلك الليلة، حيًّا.

وبما أنّ ذلك اليوم كان يوم إعدادٍ لعيدٍ عزيزٍ على قلوب الساليزيّين، وكان دون بوسكو، منذ الساعة الخامسة، قد أخذ موقعه في كرسيّ الاعتراف، وأمامه طابورٌ كثيفٌ من طالبي الاعتراف، فاعتذر عن تلبية الدعوة إلى بيت الجنرال قبل الفراغ من سماع اعترافات جميع الذين انتظروا دورهم.

وفرغ من مهمّته عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، فطُلب منه الاستعجال في الذهاب إلى بيت الجنرال، لئلاّ يصل بعد فوات الأوان. وكانت عربةٌ تنتظره عند باب الكنيسة. ومرّةً أخرى اعتذر دون بوسكو عن الاستعجال في الذهاب، فهو منذ الصباح لم يتناول طعامًا، وكان حريصًا على تناول عشائه قبل منتصف الليل، لكيلا تتعذّر عليه المناولة، في يوم عيدٍ غالٍ على قلبه. فقد كانت الكنيسة حينذاك، تفرض على المتناول أن يكون صائمًا منذ منتصف الليل.

ووعده مرسَلو الجنرال بإعداد عشاءٍ له حال وصولهم إلى

البيت، قبل فوات أوان إعداد الجنرال لموتٍ مقدّسٍ. ولكنّه قال لهم:

- يا قليلي الإيمان، ألم أقلْ لكم إنّ الجنرال سيتناول في الكنيسة صباح عيد مريم المساعِدة؟

وبهدوءٍ تناول عشاءه قبل حلول منتصف الليل.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ الجنرال، وطلب من ابنه أن يأتيه بملابسه، وأن يمضي به إلى الكنيسة، كي يتناول من يد دون بوسكو.

عند الساعة الثامنة صباحًا، كان دون بوسكو في الموهف (السكرستيّا)، يرتدي زيّه الكهنوتيّ للاحتفال بالقدّاس، وإذ برجلٍ متداعٍ، يدخل ويقول له:

- ها أنذا، يا أبتِ!
- أهلاً بك. ولكن هل لي أن أتشرّف بمعرفة اسمك؟
- ألم تتعرّف الجنرال؟
- آه! تباركت السيّدة العذراء المساعدة. ألم أبلّغك أنّك

ستحضر إلى كنيستها، وتتناول، في يوم عيدها؟

- **يا أبتِ، أودّ أن تسمع اعترافي، لأنّي راغبٌ في التناول، أثناء هذا القدّاس.**
- **لقد اعترفت قبل يومين. وهذا يكفي.**
- **كلاّ، فعلى الأقل يجب أن أعترف بخطيئة قلّة إيماني.**

وصالحه الكاهن مع الله، وناوله جسد الربّ، وعاد الجنرال إلى بيته في أفضل حالٍ.

٢١- صفقةٌ

اعتذر مركيزٌ من دون بوسكو لعدم قدرته على تقديم مساعدةٍ، لأنّ محاسبيه قد بلّغوه للتوّ استحالة تحصيل دينٍ قدره عشرون ألف فرنك. وافترض دون بوسكو احتمال خطأٍ من قِبَل المحاسبين. ولكن المركيز كان واثقًا من مهارة محاسبيه، الذين لم يفسحوا أيّ أملٍ في استعادة ماله.

ومع ذلك عرض دون بوسكو صفقةً:

- وماذا ستفعل إذا عاد دينُك لك؟

- أتعهّد بمنحك نصف المبلغ المستعاد. ولكنّي لا آمل في استرجاع شيءٍ.

- من يدري؟ فقد يكون المال من نصيب الأولاد الذين أُعيلهم. فسأدعوهم إلى الصلاة، لهذه الغاية.

وبعد مضيّ أيّامٍ معدوداتٍ، أرسل وكيل المركيز، إلى الأوراتوار خمسة آلاف فرنك، استُعيدت على نحوٍ غير متوقّعٍ، حسب وصفه، ولم يلبث أن أرسل خمسة آلافٍ أُخرى وفاءً لتعهّد المركيز.

٢٢- شفاء فتاةٍ عمياء

ذاتَ نهار سبتٍ من شهر آيّار ١٨٦٩، دخلت إلى كنيسة السيّدة العذراء المساعِدة في تورينو فتاةٌ تخفي عينيها عصابةٌ سوداء. كانت قادمةً من قرية "ڤينوڤو"، تساندها وتقودها من جانبٍ خالتها، ومن الجانب الآخر امرأةٌ أُخرى. وكانت الفتاة قد أُصيبت، قبل سنتين، بعلّةٍ في عينيها أدّت إلى فقدانهما الرؤية فقدانًا تامًّا.

وإثر صلاةٍ قصيرةٍ التمست القادمات مقابلة دون بوسكو، الذي سأل الفتاة:

- منذ متى تعانين علّة عينيك؟
- إنّي أتألّم منذ زمانٍ. ولكنّي، منذ سنتين فقدت البصر.
- وهل استشرتنّ أطبّاء، واستخدمتنَّ علاجاتٍ؟

وأجابت الخالة:

- استخدمنا أنواع علاجٍ عديدةً. ولكن لم يُؤتِ أيٌّ منها فائدةً. وأكّد الأطبّاء أنّ العينين تلفتا، بلا رجعةٍ، ولا أملٍ في شفاءٍ.

وفيما كانت الخالة مجهشةً في البكاء، سأل الكاهن الفتاة:

- هل تميّزين الأشياء الصغيرة عن الأشياء الكبيرة؟
- لا أميّز شيئًا.

وأقامها أمام نافذةٍ مضاءةٍ إضاءةً ممتازةً، وطلب منها إزاحة العصابة، وسألها:

- هل ترين النور من هذه النافذة؟
- ما أتعسني! لست أرى شيئًا.
- وهل تريدين أن تري؟
- وهل من داعٍ لهذا السؤال؟ هذا ما أتمنّاه، أكثر من أيّ شيءٍ. أنا فتاةٌ بائسةٌ، وفقدان نظري يجعلني تعيسةً حتّى نهاية حياتي.
- وإذا شفيتِ فهل ستستخدمين عينيك لخلاص نفسك، أو لإهانة الله؟
- أعد باستخدام عينيّ لتمجيد الله، ولخلاص نفسي.
- ثقي، إذن، بالسيّدة العذراء، وهي كفيلةٌ بشفائك.
- أرجو ذلك. ولكنّي في هذه الأثناء عمياء.

- سترين.
- ما الذي سأراه.
- لمجد الله، ولمجد القدّيسة مريم العذراء، سمّي الشيء الذي أُمسكه بيدي.

فحدّقت الفتاة، بكلّ جهدها، وهتفت:

- إنّي أرى!
- ماذا ترين؟
- ميدالية السيّدة العذراء.
- وعلى الجانب الآخر من الميدالية، ماذا ترين؟
- أرى رجلاً مسنًّا، حاملاً بيده عصًا مزهرةً.
- إنّه القدّيس يوسف.

حينئذٍ، مدّت الفتاة يدها كي تمسك بالميدالية، ولكنّها وقعت، وتدحرجت حتّى زاويةٍ مظلمةٍ من السكرستيّا. وانحنت الخالة كي تلتقطها، ولكنّ دون بوسكو ردعها، مؤثرًا أن تلتقطها الفتاة بنفسها، والتأكّد من استعادتها الكاملة لنظرها.

وعثرت الفتاة على الإيقونة بيُسرٍ وسرعةٍ. وحينئذٍ تحوّل فرحها إلى شبه هذيانٍ، وراحت تُطلقُ صيحاتِ فرحٍ صاخبةً، وجرت مسرعةً إلى قريتها، سابقةً خالتها والمرأة الأخرى اللتين جاءتا بها إلى الكنيسة.

ثمّ عادت كي تقدّم الشكر للعذراء، ولخادمها القدّيس، وحسنةً للكنيسة.

ومنذئذٍ، نعمت بعينين سليمتَيْن، وبنظرٍ كامل الصفاء.

٢٣- شفاء مريضةٍ، وارتداد مدينةٍ بكاملها

كانت الحياة الدينيّة تجتاز أسوأ أحوالها في مدينة "سانپييردارينا" (Sanpierdarena)، الإيطاليّة، التي يفوق عدد سكّانها ثلاثين ألفًا، ومع ذلك لا يخدمها سوى كاهنٍ كاثوليكيٍّ واحدٍ، في حين تجهد ثلاثة محافل ماسونيّةٌ على تدمير بذور الدين فيها.

واتّفق أن أُصيبت زوجة موظّفٍ في السكّة الحديديّة، أُمٌّ لخمسة أولادٍ بمرضٍ عضالٍ. وأقرّ الأطبّاء بعجزهم عن شفائها، ونصحها الكاهن بتقبّل الزاد الأخير. ولكنّها تردّدت وأعلنت أنّها لن تقبل الأسرار إلاّ بعد أن يسمع دون بوسكو اعترافها. ومع أنّ زوجها كان ملحدًا، إلاّ أنّه لم يعترض.

وفي الحال، استدعى كاهن الرعيّة دون بوسكو، الذي كان يتطلّع إلى تأسيس فرعٍ في تلك المدينة، وينتظر أن تمهّد له العناية الإلهيّة الطريق إلى تحقيق أمنيّته.

وغمر المريضةَ السرور عندما دخل دون بوسكو إلى غرفتها، وواساها، وأكّد لها أنّ السيّدة العذراء المساعِدة ستعرف كيف تشفيها، إذا هي التمست منها الشفاء بإيمانٍ، ثمّ سمع اعترافها. ولكنّه قال إنّ الكنيسة هي المكان الأمثل لنيل الإفخارستيّا، مبيّنًا أنّه سيمكث بضعة أيّامٍ في المدينة، وأنّه سيطلب من أبنائه في الأوراتوار الصلاة من أجلها، وأنّه سيقيم، هو، قدّاسًا عن نيّتها، ودعاها إلى المجيء صباح اليوم الذي ستختاره لكي يناولها.

واستنكر زوج المريضة هذه الدعوة، معترضًا:

- أيّها الأب، ليس الوقت وقت مزاحٍ! ألا ترى أنّ المرأة تحتضر، وهي عاجزةٌ حتّى عن النزول عن سريرها. فكيف تدعوها إلى الكنيسة؟

وأجاب دون بوسكو، غير مبالٍ بالاعتراض:

- إنّ العذراء القدّيسة قادرةٌ على كلّ أمرٍ. فلنصلِّ لها معًا.

وركع فركع زوج المرأة أيضًا، مدهشًا جميع الحاضرين، وتلوا الصلوات المعهودة.

وأوصاهم الكاهن بمتابعة الصلاة حتّى عيد الميلاد. وكان ذلك اليوم هو السادس من كانون الأوّل ١٨٧٢. ثمّ علّق ميداليّة العذراء في عنق المريضة، وأهدى زوجها ميداليّةً أخرى، ومضى.

وبعد أيّامٍ معدوداتٍ، ومنذ الصباح الباكر، قصد موظّف السكّة الحديديّة وزوجته الكنيسة، حيث تلت المرأة صلوات شكرٍ حارّةً، وتناولت من يد دون بوسكو.

وكان لهذا الشفاء الفوريّ، غير المتوقّع، من التأثير على زوج المرأة، ما دفعه إلى ارتدادٍ دينيٍّ جذريٍّ، وكان لا يني يُعلن أنّ وجود دون بوسكو في تلك المدينة قد أعاد له زوجته وسلام نفسه.

وكان لهذا الشفاء أصداء أبعد أثرًا، فقد ارتجّت له المدينة بأكملها، وتحوّلت فيها الأذهان تحوّلاً كلّيًّا، فامتلأت الكنيسة، من جديدٍ، واحتاج خادم الرعيّة إلى ثلاثة معاونين كي يقوى على أداء واجب النفوس.

وما لبثت أن قدّمت المدينة لدون بوسكو بيتًا أقام فيه مركزًا ساليزيًّا جديدًا، تقاطر إليه الأولاد الصغار بأعدادٍ غفيرةٍ. وشُيِّدت كنيسةٌ ثانيةٌ، انكبّ على خدمتها ستّة كهنةٍ ساليزيّين، وآتوا خيرًا جمًّا.

٢٤- الفرع الساليزيّ في نيس - فرنسا

كان قد افتُتح، عام ١٨٧١، في مدينة نيس الفرنسيّة، أكثر الفروع الساليزيّة فقرًا ورثاثةً. وكانت قد استؤجرت من أجله ثلاث غرفٍ ضيّقةٍ في ما يشبه قبوًا، وكانت جمعيّة القدّيس فنسان دي پول هي التي تدفع إيجارها. وتقاطر الأولاد إلى ذلك المكان، فتبيّنت الحاجة الملحّة إلى مكانٍ أوسع، وأصحّ، وأكثر إيفاءً بالغرض.

وبعد محاولاتٍ عديدةٍ عقيمةٍ، حضر دون بوسكو إلى نيس، واقتيد إلى رؤية ڤيلاّ معروضةٍ للبيع. فاكتفى بزيارة القاعة الأولى، وغرفةً في الطبقة الأرضيّة، وأعلن: "هذا المبنى يناسبنا".

وفي الحال عقدت الصفقة بمبلغ ثمانين ألف فرنك. غير أنّ محامي الجمعيّة سأل الأب: "ألستَ متسرّعًا؟ ألم يكن الأفضل البدء ببناءٍ أقلّ كلفةً؟ فأنت لا تملك ما ندفع به حتّى بدل عقد الشراء". وأجاب الكاهن القدّيس: "صحيحٌ أنّ دون بوسكو لا يملك شيئًا. ولكنّه واثقٌ أنّه بعد دفع بدل عقد الشراء،

سيبقى في صندوقنا نحو اثني عشر ألف فرنك". ويبدو أنّ هذا القول لم يقنع المحامي.

في هذه الأثناء، جاء الأُسقف إلى نيس، بهدف إطلاق دعوةٍ إلى دعم المشروع الناشئ. وتقاطر القوم لسماع خطاب الأُسقف المشهور بفصاحته، والذي استرسل في الإشادة بمنجزات الساليزيّين. وفي أثناء خطابه، رزح دون بوسكو تحت وقر الإرهاق، وخضع لسيطرة النعاس، ولكنّه استيقظ في اللحظة المناسبة، وتولّى بنفسه جمع التقادم التي بلغت خمسة آلاف فرنك.

وتوالت التبرّعات، وأبرم عقد الشراء، وتبيّن بعد أداء نفقات التسجيل وجود اثني عشر ألف فرنك في الصندوق، كما توقّع الكاهن القدّيس.

ورحّب ذلك الفرع بثلاث مئة فتًى، وقدّم خدماتٍ جُلّى، محافظًا على التقاليد الساليزيّة الأصيلة، والفقر الإنجيليّ الأنقى صفاءً.

وزار دون بوسكو هذا المركز، ذات مساءٍ، وصباح اليوم التالي طلب طفلٌ اعتاد العزف على كمانٍ في الشوارع، أن

يُقبل في ذلك المكان، فجيء به إلى دون بوسكو الذي حدّق إليه باهتمامٍ شديدٍ، فتوسّم فيه فكرًا يقظًا. وكان الفتى يتأبّط كمانًا مهلهلاً. وعُقد بين الكاهن والفتى الحوار التالي:

- من أين أنت يا صديقي؟
- لست أدري.
- من أين أتيت؟
- لست أدري.
- أين والداك؟
- لستُ أدري. ولم أرهما قطّ.
- إلى أين أنت ماضٍ؟
- لست أدري.
- إذن، يا صغيري، أنا أعلم أنّك تمتلك كلّ المؤهّلات المطلوبة للإقامة في بيت دون بوسكو.

وأوعز بأن يُقبَل في الحال ذلك الفتى الذي أصبح عاملاً حاذقًا مستقيمًا.

٢٥- الكونت الذي أصبح كاهنًا ساليزيًّا في سنّ الثالثة والسبعين

تميّز كونتٌ بتقوى حارّةٍ، وبمحبّةٍ كبرى للفقراء. ولّما ترمّل، وتزوّج ابنه الوحيد، رغب، في غروب حياته، تكريس ذاته لعمل الخير، واستفسر دون بوسكو عن المنحى الأفضل الذي يجدر به انتهاجه. وفي الحال أتاه الجواب: "أصبح كاهنًا ساليزيًّا".

نصيحةٌ أدهشته، وفاجأته. فالدعوة الكهنوتيّة لم تلامس قطّ باله. وإكبابه، في سنّ الثالثة والسبعين على دروسٍ لاهوتيّةٍ تؤهّله للكهنوت بدا له تخطّيًا لطاقاته. غير أنّ إجلاله لدون بوسكو حدا به إلى إعادة النظر حتّى تقبّل الفكرة، مع أنّ طبيعته كانت تتمرّد أحيانًا، وتزيّن له مبرّراتٍ لرفضها. وخامرته شكوكٌ في صواب نصيحة دون بوسكو. صحيحٌ أنّ أنوارًا إلهيّةً ترشد ذلك الكاهن، ولكن ألا يمكن أن تدفعه

رغبته الطاغية في تزويد جمعيّته بأعدادٍ غفيرةٍ من الكهنة الساليزيّين إلى المغالاة والشطط؟ فكان يتردّد في اتّخاذ قرارٍ مُلزمٍ.

وجريًا على عادته شخصَ، صباحَ ١٨٧٧/٥/٢٣، وهو اليوم السابق لعيد السيّدة العذراء المساعِدة. وكانت غرفة انتظار دون بوسكو تغصّ بمنتظري دورهم لمقابلة القدّيس، التماسًا لنُصحٍ، أو بركةٍ، أو حلٍّ لقضيّةٍ مستعصيةٍ، أو التماسًا لشفاءٍ. واتّخذ الكونت لنفسه مقعدًا مع الآخرين. ولفت نظره امرأةٌ من عامّة الشعب، وابنتها البالغة نحو عشر سنواتٍ، جالستَين إلى جانبه. كانت الصغيرة قاعدةً على ركبتي أمّها، ولكنّها، بين فينةٍ وفينةٍ، كانت تنـــزلق، تارةً إلى جانبٍ وتارةً إلى الجانب الآخر، ولكأنّها كتلةٌ لا حياة فيها، وينضح جبينها ومحيّاها قطرات عرقٍ كبيرةً. ولّما طال انتظارهما نهضت المرأة، وتوجّهت نحو الباب مطلقةً تنهّداتٍ حزينةً، وضامّةً ابنتها تحت إبطها، لأنّها كانت تتعثّر في مشيتها وتقع بعد كلّ خطوةٍ.

وتأثّر الحاضرون، ونصحوها بانتظار القليل من الوقت، ولكنّها احتجّت بعدم قدرتها على المزيد من الانتظار، فموعد عودتها إلى البيت قد حان، وابنتها تتألّم كثيرًا، وأوضحت، في الآن عينه، أنّ مقابلتها للكاهن لن تستغرق سوى دقائق معدوداتٍ، فهي لن تطلب منه سوى مباركة ابنتها، وشفاعته لدى السيّدة العذراء، كي تشفيها.

وتعاطف الآخرون معها، وارتضوا جميعهم التنازل لها عن الموعد الأوّل، وسماحهم لها بمقابلة الكاهن قبل الجميع، مع ارتيابهم في إمكانيّة شفاء الفتاة في الحال.

وعبرت خاطرةٌ في بال الكونت، فتوسّل السيّدة العذراء جعله شاهدًا على معجزةٍ، تؤكّد له صحّة دعوته الكهنوتيّة، وتُبدِّد حيرته.

ودخلت المرأة وابنتها إلى غرفة الكاهن القدّيس، وما كادت تمضي خمس عشرة دقيقةً حتّى خرجتا يواكبهما دون

بوسكو. كانت المرأة تسكب مدرارًا من دموع الفرح، وابنتها كانت تسير سيرًا طبيعيًّا، بلا مشقّةٍ، مـــردّدةً بحبـــورٍ: "لقـــد منحتني السيّدة العذراء نعمتها".

كان الشفاء تامًّا، فساقا الفتاة استعادتا كامـــل مِنْعَتِهمـــا، واستعادت ساعدها المشلولة حرّيّة الحركة، واستعاد لســـانها طلاقة الكلام.

هذا الشفاء الباهر بدّد كلّ رِيَب الكونت، فأصبح كاهنًـــا ساليزيًّا، في أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ، باسم "شارل ألبير كيس"، وأمست الفتاة التي نعمت بالشفاء راهبةً في جمعيّة "بنات مريم المساعِدة".

٢٦- الكولونيل

كان دون بوسكو يجتاز أحد شوارع روما، عندما اعترضه كولونيل، بزيّه الرسميّ، وطرح عليه السؤال:

- أيّها الأب، ألست دون بوسكو؟
- ولمَ هذا السؤال؟
- ألستَ دون بوسكو؟
- ومع ذلك يجب أن أعرف سبب السؤال.
- هل أنت دون بوسكو، أم لا؟
- أنا، فعلاً، من تسأل عنه!

فضلاً عن طريقة السؤال الفجّة، كان لدون بوسكو أسبابه في التريّث بالجواب. وما كاد يؤكّد هويّته، حتّى ارتمى الضابط، وسط الشارع، عند قدميه، وقبّل يده.

- ماذا تفعل أيّها الكولونيل؟
- ألم تذكر، يا أبتِ، اليتيم الصغير الذي التقطته، إثر وفاة والديه، وكان حينذاك على قارعة الطريق، لا يملك شيئًا،

ولا قريبًا، ولا يعرف أيّ مصيرٍ ينتظره، فآويته على امتداد ستّ سنواتٍ، وكنت له الأب والأمّ؟ هل ترفض أن يعبّر لك ذلك اليتيم عن اعترافه بجميلك؟

حينئذٍ، ابتسم له الكاهن، وربّت على خدّه، قائلاً:

- **"أنت، إذن، ذلك الفتى الصغير. أرى أنّك أحسنت انتهاج دربك.**
- **أجل، عند خروجي من مركز رعايتك، وبفضل التثقيف الذي زوّدتني به، تطوّعت في الجيش، ورُقّيت، بسرعةٍ، إلى رتبة ضابطٍ، وها أنا كولونيل.**

وأبى الكولونيل وداع الكاهن قبل أن ينتزع منه وعدًا بالعشاء في بيته، مساءَ الغد، وعرّفه على زوجته وأبنائه الثلاثة الرائعين.

وشكر دون بوسكو للعذراء المساعِدة العناية التي أحاطت بها أحد أيتامه.

٢٧- سوارٌ من ذهبٍ

يوم ١٨٧٨/٥/٢٤، الموافق لعيد السيّدة مريم المساعِدة، قدِم إلى الأوراتوار ضابطٌ شابٌّ، تعبّر قسمات محيّاه عن ألمٍ هاصرٍ، ويطغى التأثّر على كلامه. وباح لدون بوسكو:

- زوجتي مصابةٌ منذ زمنٍ بعيدٍ بعلّةٍ خبيثةٍ، ويُخشى أن تكون نهايتها وشيكةٌ. وأنا لا أُطيق حتّى فكرة فقدانها. لذلك أتوسّل إليك الحصول من الله على نعمة شفائها.

وأغدق عليه الكاهن عبارات المواساة والتشجيع، ثمّ ركعا معًا، وتلوا صلواتٍ للسيّدة العذراء المساعِدة، التماسًا لشفاء الزوجة العليلة.

عاد الضابط إلى البيت، ولكنّه قبل انقضاء ساعةٍ عاد، وألحّ في طلب مقابلة دون بوسكو. فقيل له إنّ الأمر شبه مستحيلٍ، فدون بوسكو يرأس اجتماعًا للمحسنين إلى أوراتواره بمناسبة عيد العذراء مريم المساعِدة. ولكنّه ألحّ في طلب مقابلته، لحظةً، وقال اذكروا له اسمي، وبلّغوه رغبتي في مقابلته في الحال.

وحضر دون بوسكو، ولحظ تغيير ملامح الشابّ وإشعاع محيّاه بالفرح، وسمعه يقول: "فيما كنت معك، أحسّت زوجتي التي تركتُها محتضرةً أنّ آلامها تزول، وأنّ قواها تعود، فنهضتْ، وارتدت ثيابها، ولما عدتُ قابلتني فرحةً، زافّةً نبأ شفائها.

وأخرج من جيبه سوارًا ذهبيًّا، أعطاه لدون بوسكو قائلاً:

- هذه هديّة الزواج التي كنت أهديتها لزوجتي، وقد اتّفقنا كلانا، ومن كلّ قلبنا، أن نقدّمها للعذراء المساعدة، شكرًا عن هذا الشفاء اللامتوقّع.

وعاد دون بوسكو إلى اجتماع المحسنين، مبرزًا السوار، وقائلاً:

"هذه تقدمة شكرٍ عن شفاءٍ جديدٍ، نالتها للتوّ مريم المساعِدة. فليُكرَّم اسمها"!

٢٨- الحوذيّ

ذات يومٍ عاصفٍ وماطرٍ، كان دون بوسكو في روما، واستأجر عربة خيلٍ. ولّما رأى أنّ الحوذيّ قد ابتلّ أحبّ أن يمنحه بخشيشًا. ولكنّه لم يعثر في جيوبه إلاّ على أجرة المشوار، فعبّر له عن أسفه، وأضاف:

- سأصلّي من أجلك.
- ستصلّي من أجلي؟ قولٌ مضحكٌ لم أسمع مثله، قطّ.
- صدّقني، الصلاة أثمن من كلّ كنوز الأرض.

ابتسم الحوذيّ ساخرًا، فسأله الكاهن:

- يا صديقي، منذ متى لم تعترف؟
- لست أذكر.
- إذن، تعالَ إليّ عندما تفرغ من عملك، وسأستمع إليك. ومن المؤكّد أنّك سترتاح.

وفي مساء ذلك اليوم عينه، كان دون بوسكو قد أخلد إلى فراشه، وإذ بالحوذيّ يطلب مقابلته. فقيل له إنّ الوقت متأخّرٌ

جدًّا، والكاهن قد نام. ولكنّ الحوذيّ ألحّ، مؤكّدًا أنّ الكاهن ينتظره. وأُحيط دون بوسكو علمًا بذلك، فنهض مسرعًا، واستمع إلى اعتراف الحوذيّ، وقبّله برقّةٍ. ومنذئذٍ أصبحا صديقين.

هكذا تَكتسِب الدماثة الساليزيّة القلوب.

٢٩- توقّعاتٌ

كان على دون بوسكو أن يسافر إلى فرنسا ومنها إلى روما. وقبل رحيله جمع فئةً من كهنته، وبلّغهم تعليماتٍ هامّةً، وشدّد على ضرورة صيانة الأولاد، منذرًا بأنّ خمسةً منهم سيلقون حتفهم في غيابه، ومعبّرًا عن خشيته من مثولهم أمام الله، غير مهيّأين.

ونزولاً عند إلحاح الكهنة، ذكر أسماء الأولاد الذين كان يخشى رحيلهم. ودوّن الكهنة تلك الأسماء، على ورقةٍ طووها بعنايةٍ.

وفي الواقع خطفت المنيّة، على التوالي، أربعةً منهم جرّاء أمراضٍ مختلفةٍ. وصباح يوم عودة الأب، راودت كهنتَه فكرةُ خطأ الأب، إذ لم يكن قد رحل سوى أربعةٍ من الخمسة الذين توقّع رحيلهم.

ولكن في أثناء ذلك اليوم عينه، ألّمت علّةٌ صاعقةٌ بالفتى

الخامس، الذي كان ضمن القائمة، فسارعوا إلى منحه الأسرار الأخيرة، في اللحظة القصوى، ولفظ أنفاسه الأخيرة، فيما كان دون بوسكو ينحدر من القطار، ويستعدّ للعودة إلى الأوراتوار.

وفتح الكهنة الورقة التي كانوا قد دوّنوا فيها أسماء الأولاد الذين حذّر الأب من وفاتهم، فإذا هي على تطابقٍ تامٍّ مع توقّعاته، والأغرب أنّ تسلسل مواعيد وفيّاتهم، توافقت مع ترتيب سرد دون بوسكو لأسمائهم.

٣٠- سلسلة أشفيةٍ

في شهر آذار ١٨٨١، قام دون بوسكو بزيارةٍ قصيرةٍ إلى مدينة "غراس" الفرنسيّة، حيث قابل عددًا غفيرًا من الناس، ومنهم عاملةٌ مسنّةٌ التمست بركته، ولكنّه قال لها: "من أجل ذلك، يجب أن تركعي. ولكنّها باحت له بعدم قدرتها على الركوع منذ ثماني سنواتٍ، إثر وقعةٍ كسرت بها إحدى رجليها، فعجزت ركبتها عن الطيّ والحركة، وتيبّست، وأمست تسبّب لها آلامًا مريعةً. ومع ذلك أمرها الكاهن القدّيس بالركوع فركعت، ونالت بركته، ثمّ نهضت بلا عائقٍ، ولا ألمٍ. وحينئذٍ، التمست منه بضع لحظاتٍ كي تحدّثه عن شجونها، فلبّى طلبها، وانتحيا في غرفةٍ ملاصقةٍ، حيث باحت له بكلّ ما يثقل نفسها وضميرها.

وكان في الغرفة هرّان نشب بينهما صراعٌ مريعٌ، وزعيقٌ حادٌّ، لم تتحمّل السيّدة صخبه، فهبّت وطردت الحيوانين المتصارعين، بهمّةٍ شبابيّةٍ، فقال لها دون بوسكو مبتسمًا:

- "يبدو لي، يا ابنتي، أنّك لا تعانين ما تدّعينه من عجزٍ".

- "والأعجب هو أنّ آلام ركبتي وساقي قد اضمحلّت."

وبعد "غراس"، مرّ دون بوسكو بمرسيليا، حيث طُلبَ منه، مرّاتٍ عديدةً، زيارة فتاةٍ مريضةٍ، ولكنّه، لسببٍ مجهولٍ، كان يرفض الدعوة. وفي يوم مغادرته المدينة، اتّفق الكاهن المرافق له، مع سائق العربة، على التوقّف عند بيت الفتاة، التي كانت تقدّم لأوراتوار مرسيليا خدمات غسيلٍ وتبييض أغطية هيكل الكابيلاّ فيه.

وكانت منذ واحدٍ وعشرين يومًا، لم تستطع تجرّع حتّى قطرة ماءٍ، وعجز الأطبّاء عن إدخال جهاز تغذيةٍ اصطناعيٍّ إلى معدتها، لأنّ زلعومها كان منقبضًا انقباضًا يمنع عبور أيّ شيءٍ، فهزلت هزالاً مريعًا، والتهبت أحشاؤها ظمأً، حتّى أمست تتمنّى الموت كي ترتاح.

وقدّم لها دون بوسكو ملعقة ماءٍ، فتجرّعتها بيُسرٍ، وقدّم لها ملعقةً ثانيةً، فثالثةً، وحينئذٍ، جلست على سريرها، وهتفت: "لقد شُفيتُ". وأُغمي على والدتها. وركع الكاهن المرافق لدون بوسكو، وهو يرتجف رهبةً وتأثّرًا. وما كاد يُغلق الباب حتّى قفزت الفتاة عن سريرها، وارتدت ثيابها، وأكبّت على الامتلاء ماءً وطعامًا، وسط هتاف الحاضرين: "تباركت العذراء المساعِدة".

٣١- مفاجأةٌ سارّةٌ

في شهر شباط ١٨٨٢، كان دون بوسكو في مرسيليا، وجاءته سيّدةٌ تشكو همومها، الناجمة عن معاملة أبنائها وكنّاتها وأصهارها معاملةً مهينةً تؤلمها. فقال لها:

"صلّي للعذراء المساعِدة، وتعالي غدًا، واحضري القدّاس الذي سأقيمه عن نيّتك، وتناولي".

فامتثلت لإرشاداته.

ولّما عادت إلى بيتها وجدت صالونها ممتلئًا بأبنائها المجتمعين، كي يعتذروا عن كلّ ما صدر عنهم، سابقًا، من سلوكٍ مخزٍ، حيالها، ويؤكّدوا عزمهم على نهجٍ لائقٍ في المستقبل، وعلى كَنْسِ قذارات الماضي.

وتبادلوا قبلات فرحٍ ممزوجةً بدموع الفرح.

٣٢- في عربة قطارٍ

في إحدى مراحل حياته، كان دون بوسكو يكثر السفر بالقطار، مستخدمًا دائمًا عربات الدرجة الثالثة. ولطالما سمع أقوالاً اعتباطيّةً تتناوله تارةً بالافتراء والذمّ، وطورًا بالثناء والتكريم. وفي معظم الأحيان لم يكن الكاهن يبدي أيّ ردّ فعلٍ على تلك الأقوال، محافظًا على إغفال هويّته.

وذات يومٍ، كان في مقطورة درجةٍ ثالثةٍ غاصّةٍ بالركّاب، ودار الحديث عنه. فنهض رجلٌ بدا وكأنّه وكيلٌ تجاريٌّ متجوّلٌ، عالي النبرة، سليط اللسان. وقال: "وأنا أقول لكم إنّ هذا الدون بوسكو الذي تتكلّمون عنه، ما هو إلاّ دسّاسٌ متآمرٌ، ومحتالٌ، بارعٌ في سلب أموال الناس. أتصدّقون أنّه ينفق المال الذي يحصل عليه في سبيل الأولاد الفقراء؟ لقد أعطى لأخيه وأُمّه مبالغ طائلةً. وقد ابتنى لنفسه قصرًا رائعًا يمضي إليه بعربةٍ يجرّها حصانان. إنّه مخادعٌ من أعلى طرازٍ".

استمع دون بوسكو إلى قصيدة الهجاء، وأسطورة الافتراء إلى آخرها، بهدوءٍ عجيبٍ. ثمّ سأل الرجل:

- هل أنت متأكّدٌ ممّا تقوله؟ وهل أنت تعرف دون بوسكو حقًّا؟
- أعرفه؟ إنّي أراه كلّ يومٍ، ولديّ تلالٌ من القصص الطريفة والفضائح عنه.
- اسمح لي، إذن، بالتأكيد أنْ ما من كلمة صدقٍ في كلّ ما قلته للتوّ!
- أتجرؤ على تكذيبي؟ إنّك وقحٌ وتستأهل...

وفي هذه اللحظة عينها، توقّف القطار في محطّةٍ، ودخل المقطورة مفتّشٌ جديدٌ، وما إن لمح رجل الله، حتّى انكبّ على يديه تقبيلاً، هاتفًا بغبطةٍ:

- أنت هنا، يا دون بوسكو الموقّر! يا لسعادتي بالسفر معك!

وتصاعدت صيحات التعجّب من صدور جميع الركّاب الذين ردّدوا: دون بوسكو!؟

- "أجل يا أصدقاء. إنّي أؤكّد لكم أن كلّ ادّعاءات ذلك الرجل هي محض كذبٍ، وبعيدةٌ كلّ البعد عن الحقيقة. واعلموا أنّ والدتي تعيش معي، وتُعنى بأولاد الأوراتوار، وأنّ أخي ما زال فلاّحًا ساكنًا في البيت الوضيع، الذي وُلدنا فيه، أما بشأن العربة فما هي سوى مقطورة الدرجة الثالثة هذه".

وكاد استنكار الركّاب لأقوال الرجل المدّعي يدفعهم إلى تمزيقه شرّ تمزيقٍ، فسارع إلى الاختباء في مقطورةٍ أخرى، وفرّ من القطار عند أوّل محطّةٍ. ودفع إعجاب أحد الركّاب الذين شاهدوا هدوء دون بوسكو ورقّته وصبره، إلى التطوّع في صفوف المتعاونين مع أوراتوار دون بوسكو.

٣٣- أوراتوار في باريس

بمناسبة زيارة دون بوسكو لباريس عام ١٨٨٣، طُلِب منه تأسيس فرعٍ لجمعيّته في العاصمة الفرنسيّة، ووافق على المبدأ. غير أنّه كلّف المحسنين وأصدقاء جمعيّته بالعثور على المكان المناسب. فوجدوا بناءً نال قبول المؤسّس، وحُدِّد سعر شرائه بمئةٍ وخمسةٍ وعشرين ألف فرنك، على أن يدفع منه ستّون ألفًا قبل توقيع العقد.

وتألّفت لجنةٌ من أجل جمع هذا المبلغ. وبعد لأيٍ جمعت عشرين ألفًا، وبقي واجب تأمين أربعين ألفًا أخرى. ومضت شهورٌ، عبثًا، وعاد دون بوسكو إلى تورينو. ولّما طال الانتظار، سئم البائع، وأعلن في شهر كانون الأوّل استعداده لفسخ وعده بالبيع، إن لم يُدفَع المبلغ المتّفق عليه، ويوقّع العقد قبل نهاية السنة.

وزفّ دون روا هذا النبأ إلى دون بوسكو، الذي كلّفه

بإعلام اللجنة الباريسيّة أنّ لا مخرج من المأزق إلاّ بالصلاة. فدبّج دون رُوا رسالةً بهذا المعنى، وفيما هو في طريقه إلى مركز البريد لإرسالها، التقى كاهنًا حاملاً رسالةً قادمةً من روما، سارع إلى فتحها، فإذا بها تتضمّن تقدمةً من كونتيسةٍ بمبلغ أربعين ألف فرنك، من أجل بناء أوراتوارٍ ساليزيٍّ في باريس تحديدًا.

وتبيّن أنّ الكونتيسة المذكورة، كانت تجهل كلّ شيءٍ عن المبنى المنويّ شراؤه، والأزمة الماليّة التي كادت تطيح بتلك الصفقة.

وبهدوءٍ تامٍّ فتح دون رُوا رسالته إلى اللجنة الفرنسيّة، وأضاف إليها ملاحظةً تفيد بأنّ المبلغ توفّر، وبات بالإمكان توقيع العقد في الحال.

٣٤- فقرٌ

عام ١٨٨٣، كان دون بوسكو في مركز رعاية "نيس" الساليزيّ. ودُعي إلى الغداء في المدينة. وتلافيًا للتأخّر عن الموعد اقترح مرافقوه اجتياز النهر الذي كان ماؤه في ذلك الحين، واطئًا. وكانت قد مُدّت خشبةٌ فوقه تساعد على الانتقال من ضفّةٍ إلى أخرى، مختزلةً مسافة الطريق. ولكنّ الخشبة كانت تفتقر إلى الحجم الآمن، بسبب قصرها، وضيقها. وكان دون بوسكو، حينذاك، يشكو من وهن ساقيه وحُسر بصره، فخطا خطوةً خارج الخشبة وهوى إلى النهر.

صحيحٌ أن الماء فيه كان رقيقًا، وتمّ انتشاله بيُسرٍ، ولكنّ الكاهن كان مبتلاً بأكمله، واضطرّ إلى العودة من أجل استبدال ثيابه.

بادئ الأمر وفّرت له السقطة سانحةَ مزاحٍ ووصفها بعمادةٍ تغطيسًا. ولكنّها وفّرت له، أيضًا، مفاجأةً، أثلجت قلبه. فقد

تبيّن أنّ لا هو، ولا أحد من كهنته يملك ثيابًا يستبدل بها ثيابه المبلّلة. فلجأ إلى سريره، فرحًا، معلنًا: "هذا هو حقًّا، البيت الخليق بدون بوسكو".

٣٥- دون بوسكو تحاور ڤيكتور هوغو

من المعلوم أنّ مرور دون بوسكو بباريس عام ١٨٨٣، كان مجيدًا، ونصرًا متواصلاً، وسلسلةً متّصلةً من الهتافات التكريميّة، وبالإجمال فِعْلَ إيمانٍ رائعًا. فحيثما حلّ كانت الجموع تحتشد، وأفواج الزائرين تتقاطر، من كلّ طبقات المجتمع. كان حَسْبَ بعضهم رؤيته، وبركته، والتماسٌ لنعمةٍ، أو لنُصحٍ، أو لكلمةٍ. وكان محظيّون ينعمون بالتحدّث إليه.

وفي سجلاّت الجمعيّة المتعلّقة بهذه الزيارة حادثةٌ تؤكّد أنّ دون بوسكو قد رواها وثبّتها بنفسه، مع أنّ حقيقة واقعها كان محطّ سجالاتٍ مستفيضةٍ.

والرواية تفيد أنّ رجلاً مسنًّا، لم يعلن عن هويّته طلب مقابلة دون بوسكو، وكان طالبو مقابلته الذين سبقوه كثُرًا، فانتظر في حجرةٍ ثلاث ساعاتٍ، حتّى تحرّر دون بوسكو من زحمة زائريه نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً. وفور دخول الكاهن إلى الحجرة بادره الزائر بالقول:

- "لا ترتعب أيّها السيّد، إذا قلت لك إنّي رجلٌ غير مؤمنٍ، وبالتالي لا أُصدّق شيئًا ممّا يروى عن معجزاتٍ تُنسب إليك".
- إنّي أجهل هويّة من يُشرّفني بالتحدّث إليّ. وليس لديّ فضولٌ بمعرفتها. وأؤكّد لك أنّني لن أسعى إلى جعلك تصدّق ما لا ترغب في الاعتراف به. ولن أحدّثك عن الدين، إذ لا يبدو أنّك راغبٌ في ذلك. ولكن قل لي هل كان هذا هو موقفك طيلة حياتك؟
- في صباي شاركتُ ذويّ وأصدقائي إيمانهم. ولكن مذ شرعت أفكّر بنفسي عشت فيلسوفًا.
- وما هو العيش الفيلسوفيّ؟
- سَوْق حياةٍ سعيدةٍ، لا تؤمن بفائق الطبيعة، ولا بالحياة المستقبليّة، التي يتّخذ منها الكهنة ذريعة إخافة الناس البسطاء والجاهلين.
- وما هي، في نظرك، الحياة المستقبليّة؟
- لا تبدّدنّ الوقت في مناقشة هذه القضيّة، عندما أُصبح في المستقبل سأتكلّم عن حياة المستقبل...

- أراك تمزح... فقد تنقضّ عليك علّةٌ مفاجئةٌ، وتقضي عليك.

ومع أنّ الزائر المجهول كان يبدو متين البنية، غير أنّه كان طاعنًا في السنّ، فقال:

- صحيحٌ، فالناس في مثل سنّي يتعرّضون لطائفةٍ من العلل.
- وهذه العلّة كفيلةٌ بإيصالك إلى القبر.
- لا محالة. فلا أحد منزّهٌ من ضريبة الموت.
- وماذا ستفعل عندما يحين دخولك في الأبديّة؟
- سيكون لديّ من الشجاعة ما يُبقيني فيلسوفًا لا يؤمن بفائق الطبيعة.
- وما الذي يمنعك حينئذٍ من التفكير بخلود نفسك وبالله؟
- لا شيء. ولكن سيكون ذلك فعل ضعفٍ يعيّرني به أصدقائي.
- ومع ذلك، عندما تبلغ نهاية مطاف حياتك، لن يكلّفك

شيئًا، ومع ذلك يمنح ضميرك السلام.

- أفهم ذلك، ولكنّي لا أرى ضرورة التردّي إلى هذا الدرك.
- ماذا ترجو إذن؟ فعمّا قريب لن يعود الحاضر يخصّك، وأنت تأبى الحديث عن المستقبل، فما هو رجاؤك؟

فأطرق الرجل مفكّرًا. وما لبث أن قال له الكاهن:

- يجب أن تفكّر بالمستقبل الحاسم. ما زال لديك القليل من الحياة، فاستفد منه. وعُدْ إلى حضن الكنيسة، والتمس رحمة الله، فتخلص خلاصًا أبديًّا، وإلاّ فستموت ملحِدًا، مدانًا، وستنتهي كلّيًّا، وليس أمامك سوى العدم، حسب قولك، أو العذاب الأبديّ.
- إنّك تحدّثني الآن حديثًا لا دين فيه ولا فلسفة، بل حديث صديقٍ، لا أرفض سماعه. وأنا أعلم أنّ لا أحد من جميع أصدقائي، الموغلين في الفلسفة، قد حلّ معضلة الاحتمال بين أبديّةٍ تعيسةٍ، أو العدم. أريد التأمّل في ما قلتَه للتوّ، وإذا سمحت لي فسأعود لأراك. وصافح دون

بوسكو وناوله بطاقته ومضى. وعلى البطاقة قرأ دون بوسكو اسم زائره: ڤيكتور هوغو.

وعاد الشاعر المبدع، بعد بضعة أيّامٍ، في الموعد عينه، وأمسك بيد دون بوسكو، وقال:

- أنا لم أعُد نفس الشخص الذي تحدّث إليك منذ بضعة أيّامٍ. كنت أمزح عندما وصفت نفسي بأنّي ملحدٌ. وأنا، ڤيكتور هوغو، أرجوك أن تكون لي الصديق الوفيّ. إنّي أومن بخلود النفس، وأومن بالله، وأرجو أن أموت بين يدي كاهنٍ كاثوليكيٍّ يوصي الخالق بنفسي.

ومن المؤسف أنّ أمنيّته هذه لم تتحقّق، لأنّ المحيقين به، رفضوا إتيانه بكاهنٍ يعدّه للأبديّة.

٣٦- تبادلٌ

عام ١٨٨٥، كان دون بوسكو في مرسيليا، ووعد بإقامة قدّاسٍ في إحدى كنائسها، تعقبه محاضرةٌ دعا إليها المتعاونين مع جمعيّته.

وفي الموعد المحدّد امتلأت الكنيسة بالحضور، ولكن لم يظهر أثرٌ لدون بوسكو، وضاق أمين سرّه ذرعًا، فاقتحم غرفته، وهمّ بلومه، ولكنّه وجده عاجزًا عن النهوض بسبب صداعٍ نصفيٍّ. قال له:

- "سأنهض إذا رضيتَ أنتَ أخذ الصداعَ عنيّ."
- بطيبة خاطرٍ. حمّلني كلّ ما تريد. ولكن انهض.

ونهض دون بوسكو وجاء إلى الكنيسة. ومضى أمين سرّه إلى غرفته ضاحكًا، ولكن، ما كاد يدخلها حتّى اضطرّ إلى الاتّكاء على الجدران، كي لا يهوي أرضًا. وانتابه شعورٌ بأنّ طرفي ملزمةٍ يشدّان رأسه ويسحقانه. وبصعوبة اطّرح على سريره، لا يقوى على حراكٍ.

وأمضى دون بوسكو كلّ فترة قبل الظهر في الكنيسة. ولّما خرج، أخيرًا، أُحيط علمًا بأنّ أمين سرّه يواجه وضعًا حرجًا، من جرّاء صداعٍ نصفيٍّ شديدٍ. فجاءه، وباركه، وقال له: "يمكنك النهوض الآن". وفي الحال زال ألمه، واستأنف عمله.

٣٧- أفضّل أن أراه ميتًا على أن أراه كاهنًا

زارت دون بوسكو سيّدةٌ تنتمي إلى البورجوازيّة التورينويّة، برفقة أصغر أبنائها. فاستفسرها عن زوجها الذي كان قائمًا بأعمال الحكومة "البييمونتيّة" (نسبة إلى منطقة "البييمونت" Pièmont)، والذي كان قد استقال حديثًا، واستفهم عن ابنها البكر الذي كان يتأهل لخلافة والده في الميدان الدبلوماسيّ، وعن ابنها الثاني الذي كان في الكلّيّة العسكريّة يتأهل لمنصب جنرالٍ.

وحينئذٍ، سأل، مازحًا، مشيرًا إلى ابنها الأصغر المرافق لها:

- "وهل سنجعل من هذا الصغير كاهنًا؟"

ولدى سماع المرأة هذه العبارة، انتابتها ثورةٌ هوجاء، وأفقدها الحَنَق القدرة على الكلام، ثمّ، بعد برهةٍ صرخت صرخةً مجنونةً: "كاهن؟، أبدًا! خيرٌ له أن يموت على أن يكون كاهنًا!"

هذه الإجابة الحمقاء طعنت بعمقٍ قلب دون بوسكو، ومع ذلك جهد، عبثًا، في تهدئة السيّدة، وإقناعها بأنّ قوله لم يكن مطلبًا، بل مجرّد مزاحٍ.

وانصرفت المرأة تجيش غضبًا وسخطًا. غير أنّها، بعد مضيّ ثمانية أيّامٍ، عادت إلى دون بوسكو، منهارةً، مرتعدةً، تغمر الدموع وجنتيها، والتمست منه مرافقتها من أجل مباركة طفلها المحتضر. ومنذ وصولهما إلى البيت أمسك الطفل بيد دون بوسكو، وانكبّ عليها تقبيلاً. وفيما كان الأطبّاء الذين استعدّوا للتشاور يقرّون بعجزهم عن تبيّن المرض، الذي أودى بالفتى إلى هذه الحال، استدعى الصبيّ أُمّه وهمس في أذنها بصوتٍ خافتٍ سمعه معظم الحاضرين: "أنا أعرف سبب موتي: إنّ قولك، أمام دون بوسكو إنّك تفضّلين رؤيتي ميتًا على أن تريني كاهنًا، وإيثارك موتي على أن تعطيني لله، استجاب له الله، وها هو يأخذني منك"!

وعكف دون بوسكو على إعداد أفراد الأُســـرة للمحنـــة القاسية، واعدًا بدعوة جميع أولاد الأوراتوار للصلاة من أجل شفاء الولد العليل.

ولكن لم يلبث أن بُلِّغ نبأ وفاته.

٣٨- تكاثر حبّات البندق

في مطلع عام ١٨٨٦، قدّم طلاّب الصفّين الرابع والخامس في الأوراتوار تهاني العام الجديد لأبيهم دون بوسكو. وناهز عددهم ثمانين طالبًا.

ومع أنّ الأب القدّيس كان، حينذاك، متألّمًا، تقبّلهم بأعذب رقّةٍ، ولا سيّما أنّهم كانوا، بسلوكهم، مفخرة الأوراتوار. وقال لهم:

- يا أولادي، أودّ أن أقدّم لكم شيئًا. وفيما كان يبحث من حوله عمّا يستطيع تقديمه لمح كيسًا ورقيًّا، يحتوي بضع حبّات بندق. فغرف منه بملء يده، وقدّم قبضةً طافحةً للشابّ الذي كان في الطليعة.

وابتسم الآخرون، لأنّهم قدّروا أنّه إذا استمرّ يقدّم بهذا السخاء فلن ينال سوى اثنَيْن أو ثلاثةٍ منهم شيئًا من البندق. ولكن دهشتهم استمرّت تتعاظم، وهم يشهدون التوزيع مستمرًّا، بنفس الوتيرة وبالبحبوحة عينها، وينال كلٌّ منهم، بقدر ما تستوعبه كفّاه الملتحمتان.

ولّما نال كلٌّ منهم نصيبه الوافي، لفتوا نظر أبيهم إلى أنّ أربعةً من رفاقهم كانوا غائبين، وسيشقّ عليهم ألاّ يحصلوا على شيءٍ. وفي الحال مدّ دون بوسكو يده إلى الكيس الفارغ فراغًا كلّيًّا، واستخرج منه بضع قبضات بندقٍ لكيلا يُحرم الغائبون، أيضًا، من حصّتهم.

وظلّ سرّ اصطياد البندق من كيسٍ فارغٍ لغزًا استعصى فهمه على طلاّب دون بوسكو.

وأكّد لهم دون بوسكو، بهذه المناسبة، أنّ أحداثًا مماثلةً عديدةً قد جرت معه، وذكر:

- ذات يومٍ، سلق الطبّاخون بضع حبّات كستناء في قدرٍ صغيرٍ. وطالب أولادٌ كثيرون بحصّتهم منها، ونال كلٌّ منهم قسطًا وافيًا.

وبغتةً، ارتسم الجدّ على محيّاه، واستأنف القول:

- مرّةً أخرى، لم تكن كأس المناولة تحتوي إلّا على ثلاث قرباناتٍ، ومع ذلك ناولت بها جمهورًا غفيرًا.

٣٩- العناية الإلهيّة، أيضًا وأيضًا

من كلّ المراكز الساليزيّة، كان مركز "ڤالّيكروزيا" (Vallecrosia)، في جنوب إيطاليا، هو الأكثر تضرُّرًا بالهزّة الأرضيّة الرهيبة، التي حدثت في ١٨٨٧/٢/٢٣. وكان لا بدّ من إعادة عددٍ كبيرٍ من الفتيات اللواتي كنّ يسكنّ المركز، مؤقّتًا، إلى أُسرهنّ، مع أنّ هذه الإعادة كانت تعرّضهنّ لمخاطر روحيّةٍ جسيمةٍ. ولذلك بذل دون بوسكو جهودًا خارقةً في سبيل إنقاذهنّ.

ومع أنّه كان مفلسًا كلّف مهندسًا بدراسة كلفة الأعمال العاجلة لهذه الغاية، ريثما تُكمل أعمال إعادة البناء، وقدّر المهندس كلفة أكواخٍ خشبيّةٍ تقيم فيها الفتيات مؤقّتًا، وحمل دون روا هذا التقدير إلى رئيسه، الذي تساءل عن وسيلة تأمين المبلغ المطلوب، بلا تلكّؤٍ. وجريًا على عادته كلّف العناية

الإلهيّة بالمهمّة، واستجابت العناية الإلهيّة في الحال، من خلال كونتٍ معروفٍ بإحساناته، دخل وقال: "لقد حمّلتني عمّتي رسالةً لك، يا أبتِ. فهي كانت تودّ أن توصي إليك بإرثٍ، ولكنّها أعادت نظرها، فالإرث غالبًا ما يكون عامل شؤمٍ، وتحصيله يسبّب قضايا معقّدةً. وآثرت أن تريحك في الحال، وهي على قيد الحياة. وها هي ترسل لك ستّة آلاف فرنك يمكنك التصرّف بها كما ترى مناسبًا.

حينئذٍ، وضع دون بوسكو تقدير المهندس بين يدي الكونت، وقال له: "أُنظر كيف ألهمت السيّدة العذراء المساعِدة عمّتك، وبلّغها عميق شكرنا، وأخبرها أنّ تقدمتها ستسلك، في الحال، طريقها إلى "ڤالّيكروزيا".

٤٠- من هو المحسن؟

في كانون الثاني ١٨٨٥، دمّر حريقٌ معمل تجليد أوراتوار تورينو، محدثًا أضرارًا فادحةً. وقُدِّر مبلغ إصلاحها، إصلاحًا لائقًا، بما لا يقلّ عن عشرة آلاف فرنك.

ولم تكد تمضي ساعاتٌ على تقدير الأضرار، حتّى تلقّى دون بوسكو رسالة مضمونةً، قادمةً من فرنسا، تحتوي عشر ورقاتٍ نقديّةٍ، قيمة كلٍّ منها ألف فرنك، ولا ترافقها أيّة كلمةٍ.

وما زال اسم المرسِل الكريم مُغْفَلاً.

٤١- قيامةٌ مؤقّتةٌ من الموت

ربّما كان أغرب حدثٍ جرى في حياة دون بوسكو، أنّ صبيًّا صغيرًا أشفى على الموت، وألحّ كي يأتيه والداه بدون بوسكو كي يعترف له. ولكنّ ذويه تلكّأوا في تنفيذ رغبته؛ ولّما وصل دون بوسكو، كان الفتى قد لقي حتفَه، وأصدر الأطبّاء تقريرًا يثبت هذه الوفاة، ولكنّ دون بوسكو قال، بإيمانٍ واثقٍ، ما كان يسوع قد قال لوالدي فتاةٍ متوفّاةٍ: "إنّه لم يمت، بل هو نائمٌ". وناداه: "شارل، شارل، انهض!" ففتح الميت عينيه، وهتف: "أهذا أنت يا دون بوسكو؟ لطالما طالبت بمجيئكَ، لأنّني كنتُ أريد أن أعترف لك بخطيئةٍ لم أجسر على الاعتراف بها إلاّ لك. ولكنّي رحلتُ عن هذه الدنيا قبل مجيئك. وخُيِّل إليّ أنّني أنحدر إلى جهنّم. ولكنّ سيّدةً جميلةً طردت الشياطين، قائلةً لهم: "دعوه وشأنه، فهو لم يُدَن بعدُ. فأفلتتني الأبالسة. وها قد جئتَ أنت، فاسمع اعترافي.

وبعد ساعتين من عودته إلى الحياة، سأله دون بوسكو:

- هل تفضّل البقاء على الأرض أم الذهاب إلى الفردوس؟
- الذهاب إلى الفردوس.
- إلى اللقاء، إذن، يا بنيَّ؟

٤٢- شفاءٌ عن بعدٍ

غداة تكريس كنيسة السيّدة العذراء المساعِدة، في ١٨٦٨/٦/١٠، رغبت مُقعدةٌ فقيرةٌ في زيارة هذه الكنيسة. واقتيدت إليها بعربةٍ يجرّها حمارٌ. واضطرّت للتوقّف عند مسافةٍ قصيرةٍ من الكنيسة، بسبب كثافة الحشود، وعبثًا حاول سائق العربة اختراق الصفوف.

وفي هذه الأثناء لمحت المُقعدةُ دون بوسكو محاطًا بجموعٍ تنال بركته، فنسيت عاقتها، ونهضت كي تنطلق نحوه، وحينئذٍ تبيّنت أنّها تحرّرت من عاقتها، فانفجرت من أعماق صدرها صيحةٌ مجنونةٌ، معلنةً شفاءها العجيب. وتدفّقت الدموع من عيون ذويها، الذين كانوا قد رافقوا حجّها. وحاولوا العودة بها إلى البيت من أجل الاحتفال بشفائها. ولكنّها ما انفكّت تجهر: "لقد شُفيتُ، لقد شُفيتُ. ولن أعود قبل أن أشكر للسيّدة العذراء هذه المعجزة".

٤٣- أشفية أطفالٍ

١) عام ١٨٦٧، كان دون بوسكو ضيف أُسرةٍ نبيلةٍ في روما، وكان للأسرة طفلٌ لم يتخطَّ عمره الثمانية عشر شهرًا، مصابٌ بدمَّلٍ في حلقه، يسبّب له آلامًا مريعةً، ويمثّل خطرًا على حياته. وكان ذووه يخشون، بين لحظةٍ وأخرى، أن يتحوّل الدمَّل إلى التهاب دمٍ منتشرٍ. وكان الجرّاحون يخشون إجراء عمليّةٍ، على قدرٍ كبيرٍ من الخطورة، خشية أن تسبّب أذًى للحنجرة. وصباح يوم السادس عشر من كانون الثاني قبل مغادرة دون بوسكو بيت مضيفيه، من أجل الاحتفال بالقدّاس، بارك الطفل، ولامس رقبته بميداليّة العذراء المساعِدة. ولمّا عاد من الكنيسة كان الدمّل قد تقلّص تقلّصًا بيّنًا وسريعًا، سهّل على الجرّاحين إجراء العمليّة في ظروفٍ مثلى. وبعد أيّامٍ معدوداتٍ، دخل الطفل مرحلة النقاهة. وقال دون بوسكو لذويه، بثقةٍ كبرى، بعد أن بارك الطفل: "لا يستطيع صغيركم أن يموت لأنّ الله، يريد أن يجعل منه كاهنًا".

٢) عام ١٨٧٩، كان دون بوسكو في مدينة مرسيليا، يعاني شيئًا من المرارة من جرّاء بطء انطلاقة الفرع الساليزيّ الذي كان قد أسّسه في تلك المدينة، منذ بضعة أشهرٍ. وجاءته سيّدةٌ من أطراف المدينة مع صغيرها ابن الثماني سنواتٍ، المصاب بشلَلٍ، والمتّكئ على عكّازين لأنّ ساقيه كانتا ملتويتَيْن. فرئف بالأمّ والطفل، الذي باركه، والتمس غوث العذراء المساعِدة بحرارةٍ، ووضع في عنقه ميداليّتها. وفي الحال استقامت ساقاه، واشتدّت أعضاؤه المشلولة، فألقى عكّازيه أرضًا، وانطلق راكضًا.

وذاع نبأ تلك المعجزة في مرسيليا، فاستفاقت الإرادات الطيّبة من غفوتها، وشُفيت من شللها، وشهد المركز الساليزيّ في المدينة انطلاقةً جبّارةً لم تفتُرْ مذّاك.

وبعد أشهرٍ استفسر دون بوسكو مقرّبون منه كيف تمّت تلك المعجزة، فباح لهم: "اعترفت للأمّ السماويّة بقلقي، وهمست لها: "لقد حان لنا أن ننطلق"، وهي أتمّت كلّ شيءٍ".

٣) وفي مرسيليا، أيضًا، نال طفلٌ شفاءً فوريًّا وشـــاملاً في ساقيْه، وسمعه، ولسانه. وكان والداه قد حجّا بـــه إلى رومـــا طمعًا ببركة البابا بيّوس التاسع، الكفيلة بشفائه. ولكنّ الحـــبر الأعظم قال لهما: "خيرٌ لكما أن تذهبا بطفلكما إلى تورينـــو، وتعرضاه على دون بوسكو، الذي أجرى عندنا أشفيةً مذهلةً، وهو قد يشفي ابنكم".

وعاد الوالدان بطفلهما المسكين إلى إيطاليا. وحنّ عليه قلب الكاهن القدّيس، مذ رآه، فدعا العذراء المساعِدة، وبارك الطفل، وأمسك بيده، وأشار إليه أن يمشي، وفي الحال تحقّقت المعجزة، وسار الطفل بأقدامٍ ثابتةٍ. حينئذٍ وقف دون بوسكو وراءه، وصفّق بقوّةٍ، فالتفت الصبيّ نحوه، وكان قد استعاد سمعه، واستكمالاً للمعجزة، قال له، بصوتٍ خافتٍ، قل: "بابا، وماما". وللمرّة الأولى تلفّظ الطفل بهذا النداء العذب.

معجزةٌ شاملةٌ تحقّقت في غضون ثوانٍ، تحت سمع وبصر والديْن مذهولَيْن، اندفعا إلى مزار السيّدة العذراء المساعِدة، كي يقدّما لها دموع شكرهما وفرحهما.

٤٤- مطرٌ غزيرٌ بعد انقطاعٍ طويلٍ

انقطعت الأمطار، مدى ثلاثة أشهرٍ في منطقةٍ إيطاليّةٍ. وجاء دون بوسكو إلى تلك المنطقة كي يعظ رياضةً روحيّةً، أثناء الأيّام الثلاثة التي تسبق عيد انتقال العذراء. وبغتةً أعلن، في عظته الأولى: "إذا تصالحتم خلال هذه الأيّام الثلاثة مع الربّ باعترافٍ صادقٍ، وتناولتم يوم العيد، فأنا أعدكم، باسم السيّدة العذراء، بهطول أمطارٍ غزيرةٍ.

ولّما هبط عن المنبر، قال له راعي الكنيسة، متجهّمًا:

- لا تنقصك الجرأة المفرطة، يا أبتِ!
- في أيّ مجالٍ؟
- بإعلانك هطول المطر يوم العيد.
- أأنا قلت ذلك؟
- الجميع سمعوك. وهذه أمورٌ لا تروق لي كثيرًا!

غير أنّ القوم أخذوا وعده مأخذ الجدّ. وظلّ الكاهنان

الساليزيّان اللذان كانا يرافقان رئيسهما يـــذكران، طـــويلاً، ساعات التعبّد المتمادية التي قضياها في كراسي الاعتراف.

وذاعت نبوءة دون بوسكو في الجوار، وساد انتظارٌ قلِقٌ، وكان الشكّ طاغيًا.

وحلّ عيد لانتقال العذراء بسماءٍ مشرقةٍ، ناصعة النقاء، وحتّى الظهر لم يلوّث جوّها أثرٌ لغيمةٍ. وشهد دون لويجي: "كنّا قاصدين الكنيسة من أجل الاحتفال بصلاة الغروب، مع المركيز. وكان حديثنا مقتصرًا على المطر الموعود. ومع أنّ المشوار من قصر المركيز إلى الكنيسة لا يستغرق أكثر من عشر دقائق سيرٍ، كان العرق ينساب من جباهنا، كالسيل. وفي السكرستيّا قال المركيز للكاهن القدّيس: "يا عزيزي دون بوسكو، لقد فشلتَ فشلاً ذريعًا، في هذه النوبة. فقد وعدت مطرًا غزيرًا، والجوّ الآن ينبئ بنقيض ذلك".

وفي ختام الصلاة اعتلى دون بوسكو المنبر، وفيما كان يتلو "السلام عليك يا مريم" تمهيدًا لعظته، بدأ الجوّ يكفهرّ. ولم يكد

الأب يتلفّظ ببضع عباراتٍ حتّى بدأت البروق تسوط الأجواء، وتلتها الرعود، وأخذ التأثّر بالكاهن فصمت لحظاتٍ، وشرعت شآبيب مطرٍ كثيفٍ تقرع زجاج نوافذ الكنيسة، وتفجّرت من صدره أناشيد الشكر للعذراء.

واضطرّ الجمهور إلى التلبُّث في الكنيسة أو تحت القناطر اتّقاءً من وابل المطر.

٤٥- أربع مئة رغيفٍ من سلّةٍ فارغةٍ

يوم ١٨٦٠/١٠/٢٢، جاء صبيّان مكلّفان بتوزيع الخبز على رفاقهما، إلى كرسيّ اعتراف دون بوسكو، شاكيَيْن نفاد الخبز. فدعاهما إلى المضيّ إلى المخبز، والإتيان بخبزٍ، فأخبراه أنّ الخبّاز أعلن توقّفه عن توريد الخبز حتّى استيفاء كلّ ديونه، التي بلغت اثني عشر ألف فرنك.

واستمرّ دون بوسكو في استماع الاعترافات. وعاد الصبيّان يؤكّدان نفاد الخبز للإفطار، فنصحهما بالبحث في كلّ مكانٍ علّهما يعثران على شيءٍ. ولكنّهما ما لبثا أن عادا وأخبراه أنّ بحثهما لم يفضِ إلاّ إلى العثور على بضع قطع خبزٍ. فقال لهما: "ضعاها في السلّة، ودعاني أُكمل التعريف، ثمّ أقوم أنا بالتوزيع".

وشرع بتوزيع الخبز، ومرّ أمامه جميع فتيان الأوراتوار، ونال كلٌّ منهم نصيبَه من الخبز، من يد الأب الحبيب الذي

كان يبتسم لكلٍّ منهم، ويزوّده بكلمةٍ رقيقةٍ.

ولّما انتهى التوزيع بقيت في أسفل السلّة قطع الخبز القليلة التي عثر عليها الصبيّان.

وجديرٌ بالذكر أنّ فتًى في الخامسة عشرة يدعى "فرنشيسكو دلماتسو" (Dalmazzo)، كان قد اطّلع على نشرةٍ من "قراءات كاثوليكيّة"، وعلم أنّ لدون بوسكو مركزًا في تورينو لتربية الشبّان، وأحبّ الانضمام إليه. ولكنّه، إثر قضاء عشرين يومًا فيه، سئم ضآلة الطعام المقدّم من المركز، فاستدعى والدته كي تعيده إلى البيت. ولكنّه قبل مغادرته المكان أحبّ الاعتراف لدى دون بوسكو، وانتظر دوره، وسمع وشاهد كلّ ما حدث بشأن الخبز، وكان الفضول قد دفعه إلى الوقوف خلف دون بوسكو، لّما شرع بتوزيع الخبز، ودقّق موجود السلّة الذي لم يكن يتخطّى خمس عشرة قطعة خبزٍ. ولّما انتهى التوزيع، ونال نحو أربع مئة جائعٍ نصيبهم من الخبز،

حدّق إلى السلّة ووجد فيها ما كان قد شاهده قبل التوزيـــع، وقرّر إعادة النظر في قواعد الحساب التي تعلّمها، لأنّه لم يفهم كيف تحوّلت عمليّة طرحٍ إلى عمليّة جمعٍ وضربٍ، وقرّر إعادة النظر في مصيره، وعزم على البقاء، قائلاً لأُمّه: "لا أســتطيع فراق قدّيسٍ مثل دون بوسكو".

وأصبح فرنشيسكو كاهنًا ساليزيًّا، وأدار مدى ثماني سنواتٍ إحدى ثانويّات الجمعيّة، وكان مدى سبع سنواتٍ مندوبًا للجمعيّة الساليزيّة لدى الكرسيّ الرسوليّ، ورئيس إكليريكيّةٍ.

٤٦- كأس قربانٍ شبه فارغةٍ يتناول منها ستّ مئة شخصٍ

يوم عيد مولد السيّدة العذراء، احتشد للقدّاس نحو ستّ مئة فتًى، وكانوا جميعهم مستعدّين للمناولة. غير أنّ كأس القربان الأساسيّة الموضوعة على الهيكل كانت شبه فارغةٍ. وكان المسؤول عن السكرستيّا قد أعدّ كأسًا أُخرى ملأى، ولكنّه نسيها بعيدةً عن الهيكل، ولم يفطن إلى خطئه إلاّ حين آن موعد المناولة. وكان الأوان قد فات، ولم يعُدْ بوسعه إلاّ انتظار تأنيب رئيسه. ولم يتبيّن دون بوسكو تلك الأزمة إلاّ عندما همّ بتوزيع القربان على المتناولين. فرفع عينيه إلى السماء، وتلا صلاةً حارّةً، صامتةً، ثمّ انحدر وشرع يناول الجاثين على درج الهيكل. ونال الستّ مئة طالبٍ مناولتهم، دون أن تنضب الكأس.

ولم يستطع المسؤول عن السكرستيّا فهم كيف حدث ذلك.

٤٧- "سأعيرُك صوتي"

كان دون بوسكو يزور أحد فروع جمعيّته في فرنسا. وقد أعدّ مدير الفرع، لهذه المناسبة، احتفالاً يتضمّن تمثيليّةً مسرحيّةً، يقوم بأدوارها طلاّب الفرع. وقد دُعي إلى حضورها المتعاونون مع الجمعيّة في المدن والقرى المجاورة.

وقبيْل موعد التمثيليّة، تبيّن أنّ الطالب الذي كان عليه لعب الدور الرئيسيّ، فقد صوته فقدانًا كلّيًّا.

وأطلع مدير الفرع دون بوسكو على هذا الظرف المعاكس، فطلب رؤية الطالب فاقد الصوت، وقال له بمرحٍ: "سأعيرك صوتي، وستؤدّي دورك بنجاحٍ". وفي الحال استعاد الفتى صوته، وفقد الكاهن قدرته على النطق، فالتزم صمتًا كاملاً.

وقُدِّمت التمثيليّة طبيعيًّا، وأحرزت نجاحًا باهرًا. وعندئذٍ استعاد كلٌّ من الكاهن والطالب الممثّل، صوته الخاصّ.

أقوالٌ سحريّةٌ

كان دون بوسكو يقبض على قلوب أبنائه. فكلمةٌ منه كانت تحلّق بهم إلى سماء السعادة، وكلمةٌ كانت تغرقهم في بحران الحزن. كلمةٌ كانت تذيبهم ندمًا، وكلمةٌ كانت تضرم عزائمهم، وتمكّنهم من صنع المعجزات.

قد تكون خاطرةً بسيطةً، ولكنّها ذات نكهةٍ فائقة الطبيعة.

قد تكون بادرةً عاديّةً، ولكنّ تأثيرها مذهلٌ.

قد تكون وشوشةً رقيقةً، ولكنّها توجّه مصيرًا فذًّا.

وفي ما يلي أمثلةٌ على ذلك.

١) تأثير رسائله

كان دون بوسكو يملي رسائل فائقة البساطة. وكان الذين يدوّنونها يدهشون، مع ذلك، من تأثيرها المذهل.

فذات يومٍ، أملى رسالةً إلى شخصٍ كان قد طالما رفض التبرّع بأيّ مبلغٍ، وشرح في رسالته، المصاعب التي كان أوراتواره يتخبّط فيها.

وبعدما تلاها المرسلُ إليه تبرّع بمبلغٍ يفوق طاقاته.

٢) صريرٌ

انتحى دون بوسكو، ذات يومٍ، بمدير مدرسةٍ، وقال له، مصطنعًا جِدًّا صارمًا: "عليك أن تتعلّم تجارة الزيت".

- ولكنّي كاهنٌ
- صحيحٌ، ولكنّك، أيضًا، مديرٌ، وبصفتك هذه يجب أن تُعنى بصيانة أبنية الأوراتوار. وقد سمعتُ أبوابًا تصرّ، مع أنّ قليلاً من الزيت على مفصّلاتها، كفيلٌ بالقضاء على هذا الصرير.
- هذا أمرٌ سهلٌ.

واتّضح لدون بوسكو أنّ المدير لم يدرك قصده، فأردف قائلاً ببسمةٍ ساليزيّةٍ، مؤكّدًا على كلّ لفظةٍ: "إنّ رفاقك، أيضًا، يصرّون، فتذكّر أن تدهن بشيءٍ من الزيت تعاملك معهم".

ومنذئذٍ، تحوّل ذلك المدير إلى الأرقّ والألطف، والأكثر "ساليزيّةً" في الدنيا.

وأثبت دون بوسكو مهارته الفذّة في إلقاء دروسٍ ثمينةٍ بطريقةٍ لا أحلى ولا أعذب.

٢) قصيدةٌ

بمناسبة الاحتفال بعيد محسنةٍ إلى الجمعيّة، كلّف دون بوسكو طالبًا بنظم بضعة أبيات شعرٍ. وأكبّ الطالب جادًّا، على تنفيذ المهمّة. ولكنّ الإلهام خانه، وبقي خالي الوفاض أمام ورقةٍ بيضاء، مع كلّ محاولاته الجاهدة والفاشلة. وأحزنه أن ينام، بلا تقبيل رئيسه، لأنّه عجز عن تلبية طلبه. وأخيرًا أوهم نفسه بأنّ دون بوسكو قد نسي ما طلبه منه. وجاءه متردّدًا، ولكن متظاهرًا بالهدوء. ولكنّ الأب بادره بالسؤال، مذ رآه:

- "أين قصيدتي؟"

- حاولت ولم يأتِني شيءٌ!

- حقًّا؟ إذن في مرّةٍ أُخرى، سأكلّف من هو قادرٌ على العطاء.

كان العتاب لطيفًا، ولكنّه أرهق الفتى، وتعيّن على دون بوسكو بذلُ كنوزٍ من الرقّة، كي يمحو كآبة الفتى.

وكرّت السنوات، وأضحى ذلك الطالب صديقًا لعبقر، ولربّات الشعر، ومع ذلك لم تمّحِ من ذهنه ذكرى عتاب القدّيس.

٤) عظةٌ

تناولت عظة دون بوسكو، يومًا، التحرُّر من ممتلكات الأرض. ولّما انحدر عن المنبر تقدّم منه رجلٌ كان قد أقرضه، في صباح ذلك اليوم عينه اثني عشر ألف فرنك. ووقّع له الكاهن إيصالاً بالمبلغ، فأعاده له، قائلاً:

"لم أعد بحاجةٍ إلى هذه الورقة. بوسعك تمزيقها، فقد فتحتَ عينيَّ على النور الحقيقيّ: الله وحده، لا أحدَ ولا شيءَ سواه".

وما لبث أن تخلّى الرجل عن ثروته، وعن العالم، وعاش فقيرًا مع دون بوسكو.

٥) أسبوعٌ في فلورنسا

عام ١٨٦٥، قضى بضعة أيّامٍ في مدينة فلورنسا، وغزا قلوب أهاليها. وعندما بدأ يتأهّب للرحيل، تعالت الأصوات مطالبةً بمكوثه فترةً أطول. وسألوه عن سبب استعجاله في العودة، فأوضح أنّ عليه تأمين ثمن الخبز لأبنائه. فاستفسرت سيّدةٌ عن المبلغ المطلوب تسديده، فأجاب ثمن خبز شهرين بمعدّل ستّة آلاف فرنك عن كلّ شهرٍ.

فسألت السيّدة:

- "إذا أنا دفعت المبلغ المطلوب كاملاً، ماذا ستفعل؟"
- "سأسعد بالبقاء معكم أسبوعًا آخر".

ودُفع المبلغ في الحال، ومكث دون بوسكو، أُسبوعًا آخر في فلورنسا.

٦) إنقاذ نفس جنرالٍ

دُعي دون بوسكو إلى عشاءٍ في منـــزل كونتٍ مشـــهورٍ. وكان بين المدعوّين جنرالٌ عُهد عنه حرصه على أداء واجباته العسكريّة خير أداءٍ، ولكنّ همومَ نفسه الدينيّة لم تُقلقه قطّ.

وأثناء العشاء، لم يكفّ الجنرال عن مراقبة الكاهن بطـــرف عينه، مبديًا دهشته من كلّ تصرّفاته. وبعد العشاء رغب كلٌّ من المدعوّين في الحصول على رأيٍ أو نصيحةٍ مـــن الكـــاهن القدّيس. ودفع الفضولُ الجنرالَ إلى معرفـــة أســـرار ذلـــك الكاهن. وفيما كان يتأهّب للاقتراب منه اجتاحه قلقٌ غامضٌ، لم يستطع تفسيره، وبجُهدٍ مضنٍ دنا منه، وسأله: "أليس لديك ما تقوله لي، أيضًا؟".

– عـذرًا، يـا جنـرال. لـديّ، حقًّـا، مـا أقولـه لـك، فجميـع المحيطين بي، يتخيّلون أنّ قداستي ستُعلَن قريبًا. فهل لك أن تساعدني على خلاص نفسي؟".

للوهلة الأولى ذُهل الجنرال. وبعد أن هدأ روعه قال للكاهن:

- "شكرًا، يا دون بوسكو، فأنت وحدك كنت قادرًا على إفهامي حقيقتي بهذه الصراحة، وبهذه الرقّة".

ومنذئذٍ، عكف الجنرال على الاهتمام بشؤون نفسه، بتنظيمٍ وجرأةٍ أدهشتا أصدقاءه، وأسعدتهما.

٧) قم بواجباتك الفصحيّة

كان دون بوسكو في باريس، عام ١٨٨٣.

وجاءه شخصٌ مسنٌّ، أنيق الهندام، طالبًا نُصحًا. وما كاد يتفوّه ببضعة ألفاظٍ، حتّى استوقفه الكاهن القدّيس، وقال له:

- أيّها السيّد قُمْ بواجباتك الفصحيّة.

دهش الرجل بهذا الطلب المفاجئ، الحازم، وحاول متابعة حديثه، فقاطعه دون بوسكو ثانيةً، قائلاً له، بنبرةٍ رقيقةٍ، نفّاذةٍ:

- أيّها السيّد أدِّ واجباتك الفصحيّة.

وحاول الرجل استئناف حديثه، فقاطعه الكاهن، أيضًا، مكرّرًا، بنبرةٍ قرنت الحزم بالرقّة:

- أيّها السيّد، أدِّ واجباتك الفصحيّة.

وأرفق قوله بنظرةٍ وبسمةٍ نفذتا، نفاذ سهمٍ، إلى قلب الرجل، الذي كاد يبكي تأثّرًا.

وقد أفاد، لاحقًا، أنّ نصح الكاهن الملهَم، قد أدّى إلى إعادة وصل سلسلةٍ من النعم التي كانت قد توقّفت منذ سنواتٍ.

وفي اليوم التالي شوهد جميع أفراد أسرته، يتقدّمون من المائدة المقدّسة، ويرتدّون عنها ناعمين بالبركة والسلام.

ومنذئذٍ أمسى الرجل مسيحيًّا ورعًا، مثاليًّا.

الفهرس

أحداثٌ عجيبةٌ ٥
١- صاعقةٌ منقذةٌ..... ١٠
٢- الحــلاّق الصغير ١٢
٣- اعتراف السارق..... ١٤
٤ - غفوةٌ جماعيّةٌ..... ١٦
٥- الكاهن الأوّل الذي خرّجه دون بوسكو ١٨
٦- كيف علم؟..... ٢٣
٧- كيف أصبح نبيلٌ ماجنٌ راهبًا يسوعيًّا..... ٢٥
٨- ابنا عمٍّ..... ٢٨
٩- تحريرٌ من الوساوس ٣٠
١٠- فرنسوا الطالب..... ٣١
١١- فلنصلِّ من أجله ٣٣
١٢- بركة دون بوسكو ٣٤
١٣- العذراء ستُعنى بالباقي..... ٣٦
١٤- كيف أنهض دون بوسكو مقعدًا من سريره! ٣٨

١٥- دقّة العناية الإلهيّة في حلّ أزمات القدّيس في حينها. ٤٤
١٦- موتٌ بلا خوفٍ..... ٥٢
١٧- كيف نجا الأوراتوار من دعوى تخلّفٍ عن الدفع ٥٦
١٨- دعوةٌ..... ٥٩
١٩- الطبيب الملحد..... ٦٢
٢٠- شفاء جنرالٍ..... ٦٥
٢١- صفقةٌ..... ٦٩
٢٢- شفاء فتاةٍ عمياء ٧٠
٢٣- شفاء مريضةٍ، وارتداد مدينةٍ بكاملها..... ٧٤
٢٤- الفرع الساليزيّ في نيس - فرنسا ٧٨
٢٥- الكونت الذي أصبح كاهنًا ساليزيًّا في سنّ الثالثة والسبعين ٨١
٢٦- الكولونيل..... ٨٥
٢٧- سوارٌ من ذهبٍ..... ٨٧
٢٨- الحوذيّ ٨٩
٢٩- توقّعاتٌ ٩١
٣٠- سلسلة أشفيةٍ..... ٩٣
٣١- مفاجأةٌ سارّةٌ..... ٩٦
٣٢- في عربة قطارٍ ٩٧
٣٣- أوراتوار في باريس ١٠٠

٣٤- فقرٌ ١٠٢
٣٥- دون بوسكو يحاور ڤيكتور هوغو ١٠٤
٣٦- تبادلٌ ١٠٩
٣٧- أفضّل أن أراه ميتًا على أن أراه كاهنًا ١١١
٣٨- تكاثر حبّات البندق ١١٤
٣٩- العناية الإلهيّة، أيضًا وأيضًا ١١٦
٤٠- من هو المحسن؟ ١١٨
٤١- قيامةٌ مؤقّتةٌ من الموت ١١٩
٤٢- شفاءٌ عن بعدٍ ١٢١
٤٣- أشفية أطفالٍ ١٢٢
٤٤- مطرٌ غزيرٌ بعد انقطاعٍ طويلٍ ١٢٥
٤٥- أربـــــع مئة رغيفٍ من سلّةٍ فارغةٍ ١٢٨
٤٦- كأس قربانٍ شبه فارغةٍ يتناول منها ستّ مئة شخصٍ ١٣١
٤٧- "سأعيرُك صوتي" ١٣٢

أقوالٌ سحريّةٌ ١٣٣
١) تأثير رسائله ١٣٤
٢) صريرٌ ١٣٥
٢) قصيدةٌ ١٣٦
٤) عظةٌ ١٣٧

٥) أسبوعٌ في فلورنسا..... ١٣٨
٦) إنقاذ نفس جنرالٍ ١٣٩
٧) قم بواجباتك الفصحيّة..... ١٤١

الفهرس ١٤٣